من شتات الذاكرة

من شتات الذاكرة

حسين نصيب المالكي

من شتات الذاكرة

اسم الكاتب: حسين نصيب المالكي
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى
رقم الإيداع: 2018 / 25111
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6610 – 51 – 4

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

الإهداء

إلي أبي وأمي..
وإخوتي..
وشريكة حياتي..
إلي أبنائي وبناتي وأصدقائي..
أهدي هذه الشذرات من حياتي..

الحُطَيّة

عندما ترجع بك الذاكرة إلى الوراء عشرات السنين، وتتذكر ما حكاه لك والدك عن حي الحُطَيّة، وكيف ضربت مطارق السلف أوتادها في الصخر عند قدم الجبل، وحول مقبرة الجدارية خارج سور مدينة طبرق، وكيف كانت في تلك الفترة مجرد نجع صغير، من الخيام وبيوت الشعر، وكيف كان الأهالي يساعدون المجاهدين بالسلاح والمؤن، للدفاع عن أرضهم ضد الغزو الإيطالي، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بين الحلفاء والمحور على الأراضي الليبية، كيف انقشعت خيام الصوف والوبر، والقماش الزاهي من فوق رؤوس أهلها، وتراصفت فوق أجسادهم أكواخُ الصفيح، وبيوت صناديق الذخيرة الفارغة، وبضعة بيوت من الحجارة، وكيف ضاقت الطرقات، وشقت مياه المجاري لنفسها قنوات، ومع مرور السنوات انتشرت الأكواخ فوق الرَّبْوَة، من الشرق كانت تحدها سَبخة مالحة، ثم الطريق الرئيسي، فالبحر الذي يحيط بالمدينة من ثلاث جهات، فطبرق هي شبه جزيرة، تمدّدت الأكواخ حتى اختلطت بحي سوق العجاج في الغرب، السكان كانوا خليطا من مختلف القبائل الليبية.

تبدو أكواخُ الصفيح بالحُطَيّة متلاصقة، ذات نوافذ صغيرة واطية، تفصل بينها أزِقّة ترابية ضيقة، ومسارب من المجاري، وجدت نفسك تعيش في مدخل الحي في كوخ صغير، وجنوبه أكواخ متلاصقة، ثم الشارع الصغير الذي يشق منتصف الحي..

وسط أسرة صغيرة فقيرة تَرَعْرَعْتُ، أب طيب نحيل العود متوسط القامة، يصحو من الصباح الباكر كل يوم، يتوضأ ويصلي الصبح ويتناول إفطاره، يرتدي معطفه الباهت، يغدو إلى عمله في الحامية البريطانية مشيا على قدميه، يشتغل عاملا في الحامية، قبل مغيب الشمس يعود إلينا بالبسكويت وخبز الإنجليز الرطب، وأم ودودة طيبة قصيرة القامة ترعى شئوننا أنا وأخي الصغير.. أشعر أن لي مكانة خاصة عندهما، فأنا أولُ العنقود والطفل المدلّل لديهما، قبلي أنجبت أمي عددا من الأبناء والبنات، لكن لم تكتب لهم الحياة:

تقول البطاقة: إنني فلان
ابن فلان
وعشت في هذا المكان
في كوخ
به حجرتان
بإحداهما يقطن الوالدان
وهما فقيران
من كل شيء
عدا طيبة النفس والحنان

كنت أهرولُ كل يوم مع إشراقة شمس، إلى مكبّات القمامة والوديان، ومعي الفخّ والنشّابة بثوبي القصيروسروالي الأبيض، حيث ألتقي رفاقي هناك.. نبحث عن الدود الأصفر في الأماكن الرطبة.. أنصب فخي المعدني في وادي الجدارية، وبه الدودة الصفراء السريعة الحركة.. أدفنه تحت التراب كاللغم.. راقبت بعيني كل الطيور التي حطّت..

ما أن لمحت الطائر بوحمره يقف على الناطور حتى أخذت أطارده، أقفز خلفه، أجثو على الأرض، أحبس أنفاسي خوفًا من أن يطير، أخاطبه في خُبْثٍ ودهاء بصوت عال:

-يا بوحمره عدي غادي.. أشوي أشوي.. شور الناطور.. تلقى دودة.. دودة جاعور صفراء ودور.

وكأن الطائر كان يفهم لغتك، وتنطلي عليه حيلتك، يظل يقفز ويتطاير، حتي يقترب من الفخ المخفي في التراب، والذي لا يبدو منه شيء ظاهرٌ سوى تلك الدودة الصفراء، يقفز نحوها يقترب منها يهجم عليها ينقر الدودة عدة نقرات، وفجأة يطبق عليه الفخ، يظل الطائر ينتفض مثيرًا زوبعة من التراب، محاولا الفكاك من الفخ، لكن لا فائدة من كل ذلك، سرعان ما أهرول نحوه وأقبض عليه في زهو وانتصار، أخلصه من الفخ وأذبحه بشفرة في يدي، ثم أبحث بعد ذلك عن طائر آخر غيره، وقبل غروب الشمس أعود إلى الكوخ، بثوبي وسروالي اللذين تحولا إلى اللون الرمادي، ومعي بضعة طيور صغيرة، تعترضني أمي عند الباب، وهي تُحَمْلِقُ في سروالي المغبر وتهتف غاضبة:

-وسّخت ثوبك وسروالك باللعب في الكناسة طوال النهار..

كنت لا أبالي بغضبها.. أبحث عن علبة الكبريت.. أقوم برمي عصافيري التي اصطدتها على جمر الكانون أمام الكوخ، بعد دقائق ألتَهم لحمها أنا وأخي الصغير.

وعند انتهاء موسم صيد الطيور، في وديان بوحبلة والجدارية، كنت ألعب مع رفاقي بالبطش الزغد، أوبتصاوير الفنانين والمشاهير، أو بتلك العربات الصغيرة، التي كنا نصنع عجلاتها من علب الحليب الفارغة، أو مغاطي القازوزة، أو نلعب بكرة الجورب في الساحة الواسعة، أونطارد الجرابيع في

سبخة الحطيّة.. وعندما تختفي في سراديبها وممرّاتها، كنا نمد أيدينا داخل تلك الحفر، دون خوف من أن تلدغنا عقرب أو يلسعنا ثعبان، ونخرجها ونذبحها بشفرة الزجاج، ونشويها على نارحطب الرِّمْث الهادئة، ونلتهمها في لذة ونشوة.

كان والدي ينام مع أمي في غرفة، وأنام أنا مع أخي الصغير في الغرفة الثانية، كما أنجبت أمي بعدي بسنوات طفلة صغيرة، كتبت لها الحياة هي الأخرى، ثم أنجبت طفلا آخر حيث أصبحنا ثلاثة أولاد وبنتا واحدة وسط كوخ صغير، وعندما يأتي الشتاء وتهطل الأمطار بغزارة، تمتلئ ساحة الحوش الغير مسقوف بالأمطار..

تعرفتُ على المحلات التي كانت أمي ترسلني إليها، لشراء الكَيْرُوسين، والفحم، والحليب والزيت والسكر والشاي والطماطم والملح والجبن وغيرها، والتي من بينها محل العجيلي، ومحل ابعيو، ومجزرة بلقاسم الوحيدة في الحي، ومحل بن طاهر، ودكان بن عيسي، ودكان القري الزواري، ودكان عقيلة الشاعري، ودكان الدايخ، ودكان الفقيه سالم، ودكان الصادق ومقهى النعيري ومقهي اللبيدي..

كانت الحطيّة في تلك السنوات عائلاتها معروفة، أكواخها مشرعة الأبواب دائما.. شيوخها يفترشون الأرض بالقرب من مسجدها الوحيد يتجاذبون أطراف الحديث، أو يلعبون الشِّيْزَة بعد صلاة العصر، وحتى أذان المغرب، ينهضون يتجهون نحو المسجد، يؤدون صلاة المغرب جماعة، ثم ينصرفون إلى بيوتهم.. حيث ينام الحي بعد العشاء على أضواء فنارات القاز الخافتة.

بالحي عدة صنابير للمياه، واحدة في الوسط أمام كوخ صالح امهدي، والثانية في الجنوب الشرقي أمام كوخ خليل الشاعري، والثالثة في الغرب أمام كوخ فرج بو واجده، كانت تلك الحنفيات ملتقى للشباب والشابات، الذين يقبلون عليها من أجل جلب المياه لبيوتهم، سواء في براميل صغيرة أم كبيرة، وكان من واجباتي جلب مياه الشرب، من الحنفية القريبة إلى أهلي على حمارنا الأَشْهَب.

مع ضحى كل يوم جمعة، كنت تلمح العربات العائدة من المدينة، محملة بالأهالي أو براميل المياه العذبة، أو الحطب تشق طريقها وسط الحي، مثل: عربة بوحرق، وعربة بوالشقرا، وعربة سي رحّومة، الذي كان يقوم بنقل أكياس الدقيق للمخبز الوحيد في الحي، وعربة قازسي المقرحي الطويل القامة، القمحي البشرة، الذي يبدأ مسيرته من الحي، وهو ينادي بصوت جهوري:- قاز.. قاز للبيع.

عربة سي المقرحي، كان يُجَرْجِرُها حصانُه البني اللون، صهريجها مطليّ باللون الأحمر، قد كتبت عليه كلمة قَاز للبيع، وببطنه عجلتي لاندرو فر، والصنبور النحاسي في الخلف.. يبيع سي المقرحي القازلأهالي هذا الحي والأحياء المجاورة، التي لم تدخلها الكهرباء بعد، كان القازمن الأشياء الضرورية للطَّهْو، وكذلك الإضاءة بالفنارات، وحرق النفايات، ومطاردة الصراصير والبَقّ، وتستعمله نساء الحطية في كدّ الشعروتسريحه.

سي المقرحي يملك منزلا واسعا ، بجوارمنزل عائلة ارحيمة، ومنزل وعائلة لبيدي، وغيرهما.

كان له العديد من الأبناء والبنات، كانت تربطني بهم علاقة وطيدة وصداقة متينة، خاصة مع ابنهم محمود، الذي كان في مثل سني، وزميلي في مدرسة الضاحية، كانت عمتي مبروكة تنهض باكرا، خاصة يوم الجمعة من كل

أسبوع، تقدم لنا عند الضحى العَصِيْدَة بالرب، في قصعة من الخشب ما ألذَّ طعمها!

وقبل الظهيرة يفك محمود قيد حصانهم البني اللون، حيث نتجه به معا إلى كورنيش طبرق، نقوم بالسباحة، بينما محمود يقوم بغسل الحصان بمياه البحر، أوقات جميلة كنا نقضيها على شاطئ بحر طبرق في الصيف، نصطاد الأسماك، وننعم بالسباحة في مياهه الدافئة، ورماله الناعمة البيضاء، التي لم تكن تسربت إليه مياه المجاري يومها، تظل سنوات الطفولة بالنسبة لي مرجعًا للحنين، وتربة خصبة للذكريات الجميلة، على الرغم من الفاقة والفقر المُدْقِع.

المدرسة القرآنية

عَصْرَ ذلك اليوم انقلبتْ فيه حياتي رأسًا على عقب، يوم أن التقى أبي بجارنا الحاج سميع أمام الكوخ، وجلسا معا يتجاذبان أطراف الحديث، عندها أقبلت عليهما سلمت على الجار، ناولت أبي صفرة الشاي وفردة خبز التنور، وقفت بالقرب منهما، حدق في الجار طويلا، ثم التفت إلى والدي متسائلا:

- ولدك هذا كم عمره؟

أجابه أبي: تجاوز العشر سنوات..

- ولماذا لم تدخله المدرسة؟

- هل هناك مدرسة تقبله وهو في مثل هذا السن؟

- نعم هناك، لا تحمل هما.

- كيف.. كيف؟

- الأسبوع القادم سوف آخذه معي للمدرسة القرآنية.

- بارك الله فيك يا حاج سميع..

أحسست بالخوف والرهبة، من المدرسة والأساتذة والفقيه والعصا.

وعلى العشاء في تلك الليلة استمعت إلى أمي، كانت تتحدث إلى أبي متسائلة:

- لماذا لا ندخله مدرسة المعارف؟

- لا، القرآنية أفضل له، حتى يحفظ القرآن ويتخرج فيها فقيها.

ثم أضاف مبتسما قائلا: ويكتب الأحجبة للنساء ويقرأ الختمة على الوفيات مع زملائه..

والتفت إلى أبي وهو يسألني: ما رأيك يا بني في أن تصبح فقيها؟

هززت رأسي بالموافقة.. بينما أنا في الواقع كنت أكره المدرسة، والاستيقاظ المبكر، لأنها تحرمني من اللعب مع أقراني، واصطياد العصافير في مكبات القمامة..

فاغتبط والدي وضمني إليه قائلا:

- الله يرضى عليك يا بني.

أحس من أمي رأفة ورحمة، وفي نفس الوقت إذا أخطأت غلظة وقسوة، ومن أبي لينا ورفقا، وكنت مشاغبا وشقيا في طفولتي المبكرة.

ولكن ما جاء به جارنا الحاج سميع، أصبح مصدر قلق وخوف بالنسبة إلي.

في الصباح مع بداية الأسبوع ارتديتُ ملابسي وحذائي الجديد، حملت على كتفي كيس الدقيق، الذي جعلوا منه حقيبة لي، وبداخله بضعة كراسات وقلم ، كنت أُجَرْجِرُ قدمي في تثاقل وبطء، خلف جارنا سميع في اتجاه المدينة، كمن هو ذاهب إلى حتفه، بعد ساعة دخلنا المدرسة القرآنية، الجاثمة هناك في أقصى الشرق، دلف بي عمي سميع نحو الفصل مباشرة، ما أن فتح الباب ودخل بي على الفقيه وحيّاه.. الذي كان يجلس على كرسيه الخشبي.. في مقدمة الفصل.. يرتدي كاط ملف.. وجرد أبيض وشنة حمراء.. يبدو في مقتبل العمر، بيده عصا رفيعة، بجواره فلقة، وهي عبارة عن عصا طويلة غليظة، في وسطها حبل مثبّت من طرفيه، صوب التلاميذ أعينهم الناريّة نحوي، وكأنهم يطلقون علي الرصاص، أحسست بالخوف يعتريني، تمنيت العودة من حيث أتيت،

لكن لا مفرّ لي، لقد وقع الفأس في الرأس، نهر الفقيه التلاميذَ الذين أخذوا يتهامسون ويتغامزون علي، أمرهم بالتحديق في الألواح التي أمامهم، ومواصلة القراءة بصوت عالٍ، خرج الحاج سميع بعد أن أوصى بي الفقيه، الذي أمرني بالجلوس في الدرج الأمامي، إلى جوار تلميذ كان يقرأ القرآن بدون لوح، وبإصبعه يلوي شعرات في مقدمة رأسه، عرفت فيما بعد أنه كفيف البصر، ويدعى شعبان عوض، يحفظ القرآن دون استخدام اللوح، بعد دقائق استدعاني الفقيه والتقط لوحًا كان إلى جواره، غمد الفقيه قلمَ القصبة في دواة الحبر المصنوع من صوف الأغنام المحروق، شرع يكتب ويقرأ بصوت مرتل وأنا أردد خلفه:

((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)).

سلمني بعدها اللوح، أمرني بالعودة إلى مقعدي إلى جوار الطالب الكفيف، وقراءة السورة عدة مرات من اللوح، لتسميعها عليه في الغد، شرعت أقرأ بصوت عالٍ مثل زملائي.. أحملق في لوحي، تنبهت إلى أن الفصل قد امتلأ بهدير أشبه ما يكون بخلية النحل.. التلاميذ يتمايلون يَمْنَةً ويَسْرَةً وبعضهم إلى الأمام، أدرت نظري ألتفت إلى زملائي، فإذا هم غارقون في تجربة الحفظ، أخذت أحفظ ما كتبه لي الفقيه، وبعد مضي ساعة أو أكثر صَلْصَلَ جَرْسُ المدرسة.. معلنا استراحة الإفطار، وضعنا الألواح في نهاية الفصل.. هَرْوَلْنَا نحو المقصف... اصطففنا في طابور طويل لاستلام سندوتشات الحلوى المعجونة... ومن يومها ودّعت رغيف الطماطم بالزيت الذي كنت أخطفه خلسة من أمي، وعندما كانت تفطن لي تنهرني، وتصيح في غاضبة:

-كملت علينا الطماطم والزيت.

في المدرسة تعرفت على رفاق جدد، خميس ادريس ، ورافع المزيني ، وسالم حسن ، وصالح أعزوزه ، وصالح ميلاد ، وعلي الجطلاوي ، وعطية لوجلي ، وفتحي عجرم – وسعد صالح ،وشعبان عوض وغيرهم، حتى يصلصل الجَرْسُ معلنًا انتهاء استراحة الإفطار، دخلنا الفصل من جديد انصرف الفقهاء، ودخل علينا أستاذ العربي، كان طويل القامة مثل لاعب السلة، يرتدي بذلة رصاصية وحذاء أسودَ لمّاعا، شرع يعلمنا الحروف الأبجدية من البداية، كتب كل تلميذ الدرس في كرّاسته عدة مرات، الحصة الثانية كانت لأستاذ الحساب، أطل علينا هو الآخر مع بداية الحصة، متجهّم الوجه أنيق الهِنْدام، على عينيه نظارة، بيده عصا رفيعة، نهض التلاميذ طلب منهم مد أيدهم أمامهم، حدّق يفتش على الأظافر الطويلة، كل طالب يداه ممدودتان أمامه، يُحَمْلِقُ فيهما، من يجد أن أظافره طويلة يجلده بالعصا ثلاث جلدات، أما أنا فقد حدّق في أظافري بغضب، وأمرني بتقليمها في الغد، ولم يضربني، لأنه عرف أنني طالب مستجدّ، وهذه أول حصة لي عنده، ثم دعانا للجلوس على المقاعد، وكتب لنا جدول الضرب رقم اثنين، وأمرنا بكتابته في الكراسات وحفظه، لتسميعه في الغد، أما الحصة الأخيرة، فقد كانت لأستاذ التربية الدينية، الذي شرع يشرح لنا كيفية الوضوء، والصلوات الخمس في اليوم.

ومنذ تلك اليوم تبدّدت مخاوفي وانقشع قلقي.. أحببت الاستيقاظ المبكر، والانطلاقَ نحو المدرسة كل صباح من الحطية على قدمي.. أحببت المدرسة ورفاقي الجدد، عرفت كيف أفك طلاسم الكلمة وحروفها.. أمحو اللوح بماء الصنبور، بعد الحفظ والتسميع على الفقيه في الصباح، ودهنه بالماء ولطيخ الطفلة، وتركه في الشمس ريثما يجفّ، أعاود الكتابة بقلم القصبة، بقية آيات السورة من بداية اللوح حتى حافّته، لكنني كنت بعيدا عن عصا الفقيه الرفيعة لسرعة حفظي.

في الاستراحة كنا نقف في طوابير أمام المقصف، يوزعون علينا الإفطار بالمجان، أرغفة محشوّة بالحلوى الطحينية، أو التن أو المربى، بالإضافة إلى الإفطار، كانوا يوزعون علينا يوم الخميس من كل أسبوع، أكياس التمر والكاكاوية الفول السوداني، كانت توفرلنا المدرسة التغذية بانتظام.

مضت الأعوام الدراسية سريعة ، كنت جادًّا في حفظ سور القرآن الكريم، وهكذا كنت أصغي إلى دروس أساتذتي في التربية الدينية، واللغة العربية، والتوحيد، والتجويد، ومبادئ الحساب، والعلوم، والجغرافيا، والتاريخ.

كان المنهج المصري هو المتّبع حينذاك في الدراسة، ومن المواضيع الطريفة التي كنا ندرسها في كتب القراءة: ((القرود وبائع الطرابيش... سرحان بين الغيط والبيت... الثور والساقية وغيرها))

موضوعات ليست لها علاقة بنا نحن الليبيين، لا من بعيد ولا من قريب.

كنت أخرج صباحًا من كوخنا كل يوم كعادتي، ما عدا أيام الجمع والعطلات الرسمية، حاملا حقيبتي قاصدا مدرستي الجاثمة هناك، في أقصى الشرق مع غيري من الطلاب الذين يدرسون في المدينة، وكذلك الأهالي القاصدين أعمالهم، كانوا يسيرون على أقدامهم من سبخة الحطية، في الأيام العادية الربيع والصيف والخريف، أما في فصل الشتاء فتتحول السبخة إلى بحيرة من المياه، لا يستطيع أحد عبورها حتى تجف بعد شهر أو أكثر، كنا نتجه نحو الطريق الرئيسي المتجه شرقا، كانت حركة السيارات محدودة في المدينة، أما الحافلات لا وجود لها إلا عند الجيش البريطاني، كنت مع غيري من المارة، أصعد المرتفع أعلى التلة الجبلية، حيث شيدت مباني المدينة القديمة، أعبر شارع الجيش المؤدي إلى الحامية، وعلى جانبيه السواني الغنية بالخضروات وأشجار النخيل والكروم، أمر بالقرب منزل وورشة عائلة جملي، والذي كان

مقهى قصار سابقا، أصعد على قدمي نحو شارع الكيت كات، حيث طاحونة بوسيف الوحيدة في المدينة، والتي كان يفد إليها بعض سكان القرى القريبة والضواحي، يحملون الشعير على دوابهم، لطحنه يربطون حميرهم في ماسورة كبيرة، في الحبس الذي كان يعرف باسم وادي رامانيولي الإيطالي، والذي هو بالقرب من مساكن آل طاطاناكي..

تلك الطاحونة أخبرني والدي عن صاحبها الحاج بوسيف، وكيف كان يستورد القمح من الخارج، في إحدى سنوات الجفاف، كان يقوم بطحنه هو وأبناؤه، وبيعه للأهالي بسعر رمزي، حتى اجتاز الأهالي عام الجفاف بسلام.

ما أن أجتاز الطاحونة ببضعة أمتار، حتى تلوح لي البيوت العصرية على جانبي الشارع، تقطنها عائلات انجليزية، يعمل أربابها في الحامية البريطانية، أو في العدم الواقعة إلى الجنوب الشرقي للمدينة بحوالي ٢٨ كيلو متر، ثم سوق الخضروات الذي كان يمثل مركز المدينة التجاري، وتباع فيه الخضروات التي كانت تجلب إليه من أودية العودة، والوعير واطبيرق، والفاكهة واللحوم والسمن والألبان، والحصر والأواني الخزفية والأكلمة، وتحيط به شوارع رئيسية، وهي شارع عمر المختار، وشارع زهير بن قيس، للسوق بابه الشرقي الذي يطل على شارع عمر المختار، تواجهه سينما حلمي، وبابه الغربي الذي يطل على شارع زهير بن قيس، بعدها أدخل شارع الاستقلال.

وفي الصباح أيام الدراسة ، كنت أسير على قدمي ، حتى أدخل شارع الشيخ المبري، مرورا بفندق الجبل الأخضر، الذي شيد منذ الاحتلال الإيطالي، وعرف سابقا باسم البيرقو ثم فندق بلاس هوتيل، أعبر من أمام عيادة الأسنان، ثم مستشفى حبشي، ثم مبنى بريد طبرق القديم، ثم أدخل شارع الاستقلال، تلوح لي تلك الكنيسة الكاثوليكية بأجراسها العالية، وراهبها الذي

كنا عندما نراه يقف أمام بابها الكبير، نحكّ رؤوسنا حتى لا نصاب بالثَّعْلَبة، هكذا كنا نعتقد، أسير اتجه نحو مدرستي الجاثمة، خلف قصر الملك إدريس، وثمة بضعة بيوت لرجال الحرس الملكي..

الدراسة كانت على فترتين، فترة صباحية وحتى الواحدة ظهرا، وفترة ما بعد العصر، حتى المغرب تتوقف الدراسة ، ينصرف التلاميذ إلى بيوتهم، كنت أحثّ الخطى عائدا وأنا أسير على قدمي، في اتجاه الغرب أدخل شارع الاستقلال، أمشي من أمام عمارة مصوراتي بو الحولة، ومدرسة القوس طبرق الإعدادية، أنحدر نحو سبخة الحطية وفي أقل من ساعة سرعان ما أصل كوخنا.

تآلفت مع الجو الدراسي في المدرسة القرآنية، أفتح عيني الفضوليّتين وأذني المرهفتين، أعتمد على نفسي في كل شيء أصبحت أعشق المدرسة ولي أصدقاء فيها، وأفضلها على البقاء في البيت أو اللعب في الشوارع والأزقة.

وذات فصل شتائي أجدبتْ البُطْنان، وتأخر سقوط الأمطار، فأخرجنا الناظر نحنُ طلابَ المدرسة القرآنية، وبعض الفقهاء إلى ساحة المدرسة، وانتظمنا في صفوف، حيث تحدث إلينا المدير، طالبا منا المحافظة على النظام، أثناء السير على الأقدام في شوارع المدينة، من أجل الدعاء أن ينزل الله علينا الغيث النافع، لزراعة القمح والشعير والدلاع في الصيف، وخرجنا نسير على أقدامنا ومعنا بعض الفقهاء، حيث مررنا من أمام الكنيسة، ثم شارع الشيخ المبري وسط المدينة ونحن نردد بصوت عال:

-آباؤنا الكبار ونحن الصغار

ارحمنا يا غفار وارزقنا بالأمطار!

حتى وصلنا الساحة التي أمام مسجد الملك، أدينا صلاة الاستسقاء، ومعنا بعض الأهالي، ثم عدنا إلى المدرسة من جديد، لكن الناظر لم يدعْنا نكمل اليوم الدراسي، وأمرنا بالعودة إلى بيوتنا، وخرجنا في غبطة وسرور.

وعندما ختمت النصف الأول من القرآن الكريم ونجحت إلى الصف الخامس الابتدائي، أخذني أبي معه إلى المدينة، واشترى لي دراجة جديدة من محل لصيفر في وسط المدينة، عدت يومها مغتبطا سعيدا وأنا أقودها، تارة ووالدي يسير إلى جانبي، حتى وصلنا سبخة الحطيّة امتطيتها، في البداية كنت أتعثر وأسقط من عليها. لكن مع التكرار، سرعان ما تعلمت قيادتها، واجتزت أبي يومها بخطوات ، ثم انتظرته ريثما يصلني، سمعته يومها يُدَنْدِنُ بصوت عال:

-ياما أنوصيك ياما نقولك سعد ليال ما لو إلى دام

تصبح ناسيني وناسي وصاتي ولاوي علي ظهر الكريد حرام!

لم يكن أبي يتدخل في شئوني الخاصة، أو يقسو علي، تاركًا لي الحبل على الغارب، فهو يكدح في العمل في الحامية يوميا من الصباح، وحتى مغيب الشمس بقليل، كل ذلك من أجل راتب لا يتعدى الثلاثين دينارا في الشهر، وأمي هي الأخرى تهتم برعاية شئون البيت والطهو، وتربية الدجاج الوطني.

كان طلاب المدرسة القرآنية خليطًا من أبناء عائلات المدينة والأحياء المجاورة، كل فصل لا يتعدى العشرين طالبا، لا نعرف بعضنا البعض في تلك المدرسة، إلا من خلال أسمائنا الأولى فقط.

كنت جادًّا في الاستماع إلى أساتذتي في اللغة العربية والتربية الدينية، وفي التوحيد والتجويد، ومبادئ الحساب، والعلوم، والتاريخ، والجغرافيا.. حفظتُ أجزاء من القرآن على يدي فقيه الفصل، وفي الصف الخامس التقيت بزميل تعرفت عليه، كان أسمر البَشَرَة نحيل العود، أجعدَ الشعر يدعى

صالح ميلاد ، بعد أن يتم تسريحنا ظهرا من المدرسة، يدعوني للغداء معه، في بيته القابع خلف فندق بلاس هوتيل، في مدخل المدينة، في شقة صغيرة هناك، وبعد شرب الشاي يأتي صديقي بآلة البيانو الصغيرة، ويظل يعزف عليها لدقائق، مقلدا في الغناء المطرب فريد الأطرش، والمطرب محمد عبد الوهاب، ثم نرجع معًا من جديد إلى المدرسة مع العصر، لاستكمال تلاوة وحفظ القرآن الكريم على يدي الفقيه رجب الجطلاوي، وقبيل غروب الشمس يتم تسريحنا من المدرسة والتفرّق إلى بيوتنا، وفي يوم الخميس، كنت أدخل مع بعض أصدقائي سينما حلمي، التي كانت تقع أمام فندق الخضراوات، مقابل مطعم وبار فؤاد، أما في أيام الجمع فكان العرض للنساء عند الثالثة بعد الظهر، وقد قسمت دار العرض إلى دورين، دور علوي درجة أولى، للعائلات للذين حالتهم المادية ميسورة، ودور أرضي درجة ثانية للشباب والصغار، زودت السينما بكراسي حديثة وإضاءة ومعدات تشغيل، كان الذي يحجز تذاكر الدخول من خلال شباك صغير، يقال له عطيه، أما خميس التاورغي، فكان يصعد الدور العلوي، لتشغيل السينما وبداية العرض للفيلم.

تذكرتُ كيف كنا ندخل سينما حلمي مع أصدقائي، وكيف كنا نتناول سندوتشات التن بالهريسة، ومشروب صداقة في مقهى عمي على العمامي.. من أشهر الأفلام التي كنا نشاهدها، الفيلم الهندي من أجل أبنائي، الذي استمر يعرض لعدة أسابيع في تلك الدار، كما شاهدنا العديد من الأفلام الإيطالية مثل هرقل وماشيستا والأبطال العشرة، وأفلام الكاو بوي الأمريكية والأفلام المصرية.

كان أزعيط دائما يقف أمام باب سينما حلمي، يبيبع الكاكاوية الفول السوداني، والزرّيعة اللب، ومستكة السبع، يضعها في صندوق خشبي، يربطه بخيط يتدلى حول رقبته، تذكرت صاحب الدار حلمي طاطاناكي، كان دائما

يشاهد العروض، وقد خصص له مقعدا في المقدمة، تخطى العقد السادس من عمره متوسط القامة، نحيل العود أصلع الرأس، يجلس بجواره ميلود المشرف، الذي يعطف عليه دائما، يدخله السينما مجانا، بيد كل واحد منهما، كيس الزرّيعة اللب أو الكاكاوية فول سوداني، وبعد انتهاء العرض كنا نسأله:- ما هو رأيك في الفيلم؟ ونحن نمزح معه فيجيبنا بابتسامة مرددا عبارته الشهيرة التي كان دائما يرددها لنا قائلا:- هذا فيلم جبّار.

أو ندخل سينما الزني، ونشاهد الأفلام الأمريكية والمصرية والإيطالية، ونتذكر في اليوم الثاني في الفصل بعد مشاهدتنا لفيلم حبّ حتى العبادة، أنا وصديقي صالح ميلاد، وهو فيلم مصري قامت ببطولته الممثلة والمطربة شادية، والفنان كمال الشناوي، والعديد من الممثلين المصريين الآخرين، كيف أخذنا نكتب سيناريو الفيلم في كراسة صغيرة، أثناء إحدى الحصص التي تغيب مدرسها، وفي فترة الدراسة كنت أذاكر دروسي، وأحفظ أجزاء القرآن الكريم في الليل على ضوء الفنار، فلم تكن الحطية قد عرفت الكهرباء بعد.

خَرْشَه بَرْشَه

كنا نشاهد التاجرالمتجول (خَرْشَه بَرْشَه)، هكذا عرفناه بقامته القصيرة، ولحيته البيضاء، يدخل الحطية يمتطي حماره الأبيض، كنا نتّبعه نحن الصغار من زُقاقٍ إلى آخر، كان يوزع علينا حلوى شاكير حتى نبتعد عنه وهو يردد:

-خرشه برشه

عجوز وطرشه

تكنس من جوه ومن بره

حره.. حره

يحمل في خُرْجِه على ظهر حماره، كل ما تحتاجه النساء من عطور وكُحل وأمشاط ولوبان، وحناء ومرايا ومناديل ملونة وملابس داخلية نسائية، وفاسوخ وجاوي وزيت شعر وسواري وسراويل نساء، وعقالات العنبر، وعدة تركيب لشعر المرأة المتزوجة لونها أحمر، وللفتاة الغير متزوجة يكون لونها أسود..

يتنقل بين أزقّة الحطية بحماره الأصهب الهزيل، وتجتمع حوله نساء الحطية، يشترين منه.

والتاجر العجوز بوخويرة، هو الآخر كان يدخل أزقة الحطية ،عندما يتذكر ابنه الشاب الوحيد، الذي راح ضحية (التربان)الألغام يردد غناوته الشهيرة ((بينك وبين الدار حطي إقناع ياعين ع العمى)) النساء والفتيات كنا يخرجْن إليه، يعترضْن سبيله يمازحْنه، يتفحصن ما معه في الخرج من خُرْدوات، وملابس يشترين منه، وهو يتنقل من زقاق إلى آخر، يعرض عليهن

البضائع هذه رخيصة، وهذه جيدة كان يتوقف أمام البيوت يتفحصن النسوة بضاعته، بعضهن يشترين منه العطور والشبّة والجاوي والمسك وغيره.

في طفولتي كنت شقيا أتشاجر دائما مع أترابي في الحطية، الذين كنت ألعب معهم في الأزقة، أمهاتهم كنا دائما يهرولن، نحو كوخنا وهن يدخلن على أمي، وهن يشتكين مني، فقد كنت طفلا مشاكسا فأنا الوحيد، المدلّل لديها، وأبي كان يعتبرني طفلا بريئا، وكذلك أمي.

وفي أيام القيلولة في الصيف كنت أقوم مع غيري من الصبية باصطياد الطيور، في مكبات القمامة بوادي جدارية، ووادي بوحبلة بالنشّابة والرش من بندقية، وصيد البوري من عيون بردي الحطية، الواقع إلى الشرق من الطريق الرئيسي، وذلك بعد تعكير مياه العيون حتى تصبح المياه سوداء، وإلقاء حطب الرِّمْث.

عندها تفقد أسماك البوري الأكسجين، تطفو فوق سطح الماء، وأحيانا تقفز فوق الحطب وعندها يسهل مسكها واصطيادها.

وعندما يقذف الصياد بالجالاطينة أسماك البوري والقاجوج في البحر، وبعد سماع الدوي العنيف، داخل المياه، كنا سرعان ما نغطس نلتقط الأسماك الصغيرة، التي يتركها الصياد، بعد ذلك نبحث عن ثمار التين في شجيرات مزرعة النيبو التي على الطريق الرئيسي.

عادة عند الضحى كنت واصدقائي ، نلمح سيارة الملك إدريس المرسيدس السوداء، تمرُق من أمامنا في اتجاه الشرق نحو استراحته في باب الزيتون، وأمامها دراجة نارية وهو يقبع في الكرسي الخلفي، يلوّح لنا بيده، وكنا نحن نلوّح له من بعيد!

كما كنا نجمع النحاس والألومنيوم من البيوت ومكبات القمامة ومن سيارات الرابش ، ونحمله إلى التاجر المرغني في وسط المدينة، حيث كان يشتريه منا ببضعة قروش، ندخل بها دار عرض حلمي، القريبة من مطعم وبار فؤاد، ونشتري بما تبقى لدينا شطائر التن بالهريسة، من سي علي العمامي، وزجاجات مشروب صداقة، وقراطيس الزريعة والكاكاوية من ازعيط.

أتذكرأن بعض سكان الحطية ذهبوا للمتصرف الجديد في مكتبه بالمدينة، وقدموا له مذكرة، بضرورة توصيل الكهرباء والمياه للحي، أسوة بغيره من الأحياء، التي وصلتها المياه والكهرباء، فوعدهم أنه سيعرض مذكرتهم هذه ومطالبهم، على المحافظ في أول اجتماع له معه خلال الأيام القادمة، وهو يأمل خيرا.

لقد عشت في الحطية عرفت كل مسالكها وأزقتها، وصادقت جميع صبيانها، وحفظت أسماء فتياتها وفتيانها، صرت أرتدي البنطلونات الأمريكية، والقمصان المزركشة، اخشوشن صوتي نبت بصدغي زَغَب، عرفت بوادر المراهقة المبكرة وأصبحت اختلس النظر إلى النساء، وأراقب فتيات الجيران من نافذة غرفتي الواطية، أحلم بهن في خلوتي، وعندما تتحدث معي فتاة أو امرأة، كنت أَتَلَعْثَمُ في حديثي معها، ويطغى عليّ الخجل والحياء.

ما زلت أتذكركيف أطلّت علينا، ذات عصرتلك الفتاة الجميلة ابنة الجيران، وجهها يبدو مثل البدر، وشعرها كشلال العَتَمَة ينسدل على كتفيها، دخلت على أمي في الكوخ، وتحدثت معها، ثم التفتت إلى قائلة:

- هل لديك علبة هندسة؟

- نعم عندي.

-عندي غدا امتحان في الحساب والهندسة.

دخلت حجرتي فتشت لها عن علبة الهندسة وجدتها، كتبت بسرعة قصاصة صغيرة، كلمات تحمل مدى عشقي لها، وعاطفتي نحوها، وتغزلي فيها أخفيتها بداخلها، لكنها في عصر اليوم التالي أرجعت لي علبة الهندسة، فتّشتها جيدا لم أعثر فيها على قصاصتي، أو على أي رد منها، كان حبي لها من طرف واحد، كأنها قد مزّقت تلك القصاصة بعد قراءتها، أو رمت بها في سلة المهملات، فهي مزهوّة بنفسها مغرورة بجمالها..

كما أتذكر أنه في ضحى عيد الفطر، ذهبت إلى المدينة، ووجدت نفسي في محل لصيفر لإيجار الدراجات، طلبت منه تأجير دراجة لمدة ساعة بقرشين، دخلت علينا فتاة أعرفها من المدينة، حيّتني بابتسامتها وهنأتني بالعيد، كانت ترتدي البنطلون الأمريكي الضيق، وبلوزة بيضاء، وطلبت مني أن أؤجّر لها هي الأخرى دراجة، كل واحد امتطى دراجته ، وانطلقنا سويا شرقي المدينة على الطريق الرئيسي، أنا على دراجتي وهي على دراجتها، حتى وصلنا المقبرة الألمانية جنوب طبرق، اقتربنا من المقبرة كان بابها الحديدي موصَّدًا، كانت المقبرة تطل على رَبْوَة تطل جنوب المدينة على البحر، توقفنا بالقرب منها لعدة دقائق، ريثما نأخذ بعض الراحة، ثم انطلقنا عائدين، كان الرصيف ينحدر نحو المدينة..

حتى وصلنا محل الأصيفر تفحص الدراجتين، وأعطاني هويتي، شكرتني هي ثم ودعتني عائدة إلي منزلها في المدينة، وافترقنا على أمل اللقاء مرة أخرى.

كنا في مراهقتنا في ليال الصيف المقمرة، نتلصّص على نوافذ أكواخ الحطية الواطية، نرهف آذاننا لنسمع ما يدور بين الأزواج والزوجات، خاصة ليلة الجمعة من كل أسبوع، ما زلتُ أتذكر عندما اقتربنا من أحد تلك الأكواخ، في شغف وفضول وضعنا آذاننا على النافذة الواطية الصغيرة، سمعنا صوته كأنه يتحدث إلى زوجته وهو يقول لها: - نلقانك كنت حمره وسمحه لكن اليوم اكبرتي وتميتي شينه.

برهة توقف الحوار بينهما، وفجأة فتح النافذة الصغيرة، انسكبت على رؤوسنا مياه قذرة، اسرعنا بالفرار، وسط جلبة وضوضاء بعيدا عن الكوخ، غير أن ذلك العجوز قد فطن لنا سمعناه يمطرنا باللعنات والشتائم: توا انوريكم يا كلاب...

اختفينا في أزقّة الحطية الضيقة، عرفنا فيما بعد أن ذلك العجوز يقطن وحيدًا في كوخه الصفيحي، وكان ليلتها يغسل شنته الحمراء بالماء والصابون، وهو يردّد تلك الأهزوجة ويتغزل في شنته.

وقبل نهاية الصف السادس ببضعة أسابيع، فوجئنا بمدير المدرسة القرآنية، يدخل علينا الفصل بعد الاستراحة بقليل، وقفنا له استعدادًا أمرنا بالجلوس، حيانا سألنا عن الدراسة والمدرسين، ثم تحدث إلينا قائلا:

- طلابي الحقيقة نختصر لكم الحديث أن هذا العام لن يكون فيه امتحان لكم في سادسة، لأنه لا يوجد معهد ديني في المدينة تنتقلون اليه العام القادم ، أرجو أن تبلغوا أولياء أموركم بهذا الأمر، ولا تطالبوننا بالامتحان في نهاية السنة..

وخاطبنا قائلا: هل فهمتم؟

رددنا: نعم فهمنا.

ثم خرج وأوصد الباب خلفه، تركنا في حَيْرة وقلق من أمرنا ، كانت صدمة قاسية بالنسبة لنا، كيف نبقى عاما آخرَ في سادسة ابتدائي؟ وماذا نقول لأهلنا؟ هل نقول لهم تأجل الامتحان هذه السنة؟ هل سيصدقون ذلك؟ عدت إلى البيت حزينا قلقا، لم أنم تلك الليلة ولم يغمض لي فيها جفن.

امتحان الابتدائية في مدرسة المجد

اهتديت إلى فكرة، ما أن أشرقت شمس صباح اليوم التالي، حتى سارعت إلى تنفيذها، ذهبتُ إلى مدير مكتب الامتحانات في شارع الفيحاء، صعدت سلالم الدور الثاني من العمارة، دخلت على المدير يبدو نحيلَ العود أصلع الرأس، ينكب على الملفات التي أمامه حدق في بعينين ضيقتين، من خلف نظارته السميكة تساءل قائلا: تفضل.

أخرجت الطلبَ الذي سهرت ليلة البارحة ساعات من أجل كتابته، مددت به إليه، تصفحه ثم بادرني:

- تأخرت قليلا لكن لا بأس.

ثم أضاف :- عد إلي غدا ومعك أربع صور، وشهادة تثبت نجاحك من الصف الخامس.

ومن يومها انقطعت عن المدرسة القرآنية وتلاميذها، وسندوتشات التن والحلوى والمربى وأكياس التمروالكاكاوية، اتصلت بأصدقائي في الحطية، ممن كانوا يدرسون في الصف السادس الابتدائي بمدرسة الضاحية الابتدائية ، أخبرتهم بانتسابي منزلي لامتحان الشهادة الابتدائية، كانت مجازفة ومغامرة مني، طلبت منهم مفردات المنهج والمواد المقررة، لم يبخلوا علي بذلك، بل وهناك من حضر منهم إلي، وشرح لي منهج الرياضيات المقرر، كنت أذاكر في النهار، وفي الليل على ضوء فنار القاز حتى ساعة متأخرة من الليل، كنت أخفض ضوء مصباح الكيروسين، أشد البطانية على جسدي المقرور، وأخلد للنوم حتى تطلع الشمس من خدرها.

بعد بضعة أيام بادرتني أمي ذات ضحى قائلة:

-والدك غاضب عليك كثيرا.

تساءلت:- لماذا يا أمي؟

- لأنك انقطعت عن الدراسة.

- أنا غيرت مجالي الدراسي فقط.

- أبوك أمنيته أن تصبح فقيها.

- المدرسة القرآنية في طبرق لغاية سادسة فقط.

- وماذا ستفعل يا بني؟

- سأدخل المدرسة الإعدادية بعد اجتيازي امتحان الشهادة الابتدائية منزلي.

- أنت أدرى بمصلحتك يا بني أنا ووالدك لا نقرأ ولا نكتب.

- اطمئني يا أمي، فقط دعواتك لي بالنجاح.

- ربنا يربحك يا وليدي وينجحك.

من خلال انكبابي على المذاكرة، في غرفتي الصغيرة نهارا وليلا، في المنهج المقرر للصف السادس ابتدائي.. والاستعانة بزملائي في فهم واستيعاب ما كان صعبا، استطعت أن أفهم جميع الدروس، دخلت الامتحان في الموعد المحدد له، بمدرسة المجد الابتدائية التي كانت سابقا مستشفى حبشي، مع تلاميذ مدارس المدينة، الامتحان استمر لمدة أسبوع، وبعد شهر أذيعت نتيجة الشهادة الابتدائية من إذاعة المملكة الليبية، وكم كانت سعادتي وغبطتي، عندما أذيع اسمي وكنت في قائمة الناجحين..

وذات عصر بينما كنت في جولة على قدمي في أحد شوارع المدينة، إذ عثرت على مكتبة بالقرب من حديقة البلدية، دلفت إليها وجدت بعض الصبية يجلسون على الكراسي يتصفحون المجلات على الطاولات، سمير، ميكي، طرزان، سوبرمان، الوطواط، ماجد وغيرها، تكرر ترددي على تلك المكتبة،

وموظفها النحيل العود، المتوسط القامة، يرتدي نظارة سميكة، طلب مني الموظف صورة وبيانات، على أن يصرف لي بطاقة إعارة، يحق لي بعدها حمل الكتاب معي إلى البيت، وقراءته هناك ثم استرجاعه، ومن يومها أصبح الكتاب رفيقي وأنيسي اطلعت على الكثير من أمهات الكتب، وألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة وقصص الأنبياء، وكتب الأدب العربي المعاصر من قصة ورواية وشعر.

كما عثرت على مكتبة خاصة تبيع الكتب والمجلات والصحف، في وسط المدينة كان صاحبها يدعى علي ليدي، المكتبة كانت غنية بالمجلات مثل: الكواكب، وآخر ساعة، والمصور، وروز اليوسف، وصباح الخير، الأديب، والآداب، والهلال المصرية، والعربي الكويتية، والمجاهد الجزائرية، وروايات الهلال المصرية والروايات العالمية مثل: عمال البحر، وكوخ العم، توم والبؤساء والشيخ والبحر وغيرها.

صرت أقرأ بِنَهَمٍ كل ما تقعُ عليه يدي من روايات وقصص، تحول جديد طرأ على حياتي في القراءة والكتابة، كتبت بعض المحاولات القصصية في كراسة صغيرة، اطلع عليها بعض أصدقائي فنالت اهتمامهم.

كنت أشتغل خلال العطلة الصيفية، في قاعدة العدم عند الإنجليز، بأجر لا يتعدى الثلاثين جنيها في الشهر، مع غيري من الشباب، لم أدخن في حياتي قط ، بالرغم من توفر التبغ بكثرة وبأنواع مختلفة في سوق القاعدة ، وبأسعار زهيدة .

أيضا كان المركز الثقافي في مدخل المدينة قد افتتح، وبه مكتبة غنية بالكتب، وصالة لمطالعة الصحف والمجلات، كنت أتردد عليه أطالع مجلة صباح الخير المصرية، والمجاهد الجزائرية، والعربي الكويتية والحوادث اللبنانية، وبيروت المساء والصحف الليبية: الشعب، والبلاغ، والرقيب، والزمان، والأسبوع الثقافي وغيرها.

مدرسة الضاحية الاعدادية

بعد نجاحي في الشهادة الابتدائية، التحقت بالصف الأول إعدادي بمدرسة الضاحية، وهي تقع في حي سوق العجاج غربي الحطية، المدرسة تقع على الطريق الرئيسي، مبنية من دور واحد، لها باب على الشارع الرئيسي، لا يدخل منه سوى المدير والمدرسين وأولياء الأمور، أما نحن فندخل من الباب الخلفي، الذي يطل على بيوت سوق العجاج، وعندما يدق سي عبد الواحد الجرس، كنا نتقاطر على الساحة ، كل واحد منا يأخذ مكانه، في الطابور المحدّد له حسب السنة الدراسية، في صفوف منتظمة ندخل الفصول، كل صف به صفان من المقاعد الخشبية، انزوَيْت في منتصف الفصل إلى جوار زميلي دخيل محمد، القادم من مدينة زليطن، عرفت فيما بعد أن والده متوفى، وأن والدته قد تزوجت من رجل آخر.. وإنه يقيم في بيت خاله عبد السلام العمامي في نفس الحي.

كان عشرون طالبا بالفصل، وطالبتان كانتا تجلسان في المقدمة.

عادة تكون الحصة الأولى رياضيات.. يدخل مدرس المادة بيده العصا أو قطعة خرطوم.. قبل أن يبدأ في شرح الدرس *الجديد* يصيح بسخرية واستهزاء:

- صبي يا عبد المالك يا قرد، تعال وحل هذي المسألة على السبورة.

يخرج عبدالمالك من الدرج، وهو يبتسم وكله ثقة في نفسه، يشرع في الإجابة على المسألة الرياضية المتعلقة بالدرس السابق، ثم يبدأ المدرس في شرح الدرس الجديد، كنت أطأطئ رأسي خجلا وخوفا، من أن يطلب مني الخروج على السبورة، أقرأ سورة الفاتحة وآية الكرسي، فأنا لا أفقه شيئا في مادة الرياضيات، وحتى في كشف الدرجات النهائية، كنت أحصل على أقل

درجات في هذه المادة، ما أن يقرع الجرس وتنتهي حصة الرياضيات، حتى أتنفس الصعداء.

أما في الحصة الثانية كانت تدب في الحياة، أشعر بالارتياح والسرور، عندما يدخل الأستاذ سيد عيسى بقامته القصيرة وبدلته الرصاصية الأنيقة، يحي الطلاب بابتسامته المعهودة، يبدأ درسه الشيق في الأدب أو النحو، سرعان ما تنتهي الحصة، لتكون الحصة الثالثة تاريخ..

ومع مرور الأيام والأسابيع، اكتشف الأستاذ سيد موهبتي في مادته فضمني، إلى أسرة الإذاعة المدرسية في إعداد وكتابة الكلمات، وإلقائها على الطلاب في طابور الصباح، ومنذ ذلك اليوم ودعت الوقوف في ساحة المدرسة في البرد القارس، والتواجد مع أسرة الإذاعة المدرسية في تلك الحجرة الدافئة، لإلقاء مقتطفات من الأقوال والكلمات والأخبار الرياضية، أصبحت أتحصل على درجات عالية في اللغة العربية خاصة مادة التعبيروالإنشاء، أصبح أستاذ العربي يشيد بي وبقصصي...

قامت شركة الكهرباء بتوصيل الإضاءة إلى منازل الحي، واختفى الكيروسين من البيوت، كما امتدت أنابيب المياه فوق سطح الأرض، ووصلت المياه إلى منازل الحي، تكونت برك مياه في الأزقة، أصبح يعب منها الدجاج والهررة والكلاب.

ذات ليلة وبينما كنت أسهر مع رفاقي أمام دكان عقيلة الشاعري، نتجاذب أطراف الحديث، إذا بالشرطي صالح الطويل، يُهَرْوِلُ نحونا ببزّته العسكرية، ويصرخ فينا بصوت عال: - هيا اسرعوا إلى بيوتكم، ممنوع التجول من الليلة.

كنا نتساءل بصوت واحد:- لماذا ماذا هناك؟

بادرنا:- لقد قام الجيش بالثورة على الملك إدريس.

ثورة... انقلاب على الملك.. حكم جديد؟ كنا لا نفقه شيئا في أمور السياسة وقضاياها.

طبرق كانت تكتظ بمئات الجنود وضباط الإنجليز، وعائلاتهم يقطنون المنازل الحديثة في المدينة، وكذلك في قاعدة العدم.

وبعد أيام قررت وصديقي دخيل محمد الذهاب إلى المدينة ، وعندما أردنا عبور الطريق الرئيسي المتجه نحو الشرق، لمحنا ثمةَ دبابةً عسكريةً تتوقف على يمين الطريق، وثلاثة جنود ببزاتهم الخضراء وبنادقهم الطويلة، يعترضون السيارات المتجهة نحو الشرق أو الغرب ويفتشونها، وثمة عسكري آخر كان يصدر لهم الأوامر في عنف وخشونة، تبدو عليه الوسامة، شعره ينساب على جبهته، وعلى يده اليمنى أربعة أشرطة كأنه الآمر، واصلنا سيرنا نحو المدينة، التي كان يخيّم عليها الفراغ والكساد، وحركة البشر فيها محدودة، وثمة كتابات ورسومات عديدة على جدران مدرسة المجد، ومحلات وأبنية المدينة: تحيا الجمهورية الليبية – عاشت الثورة – حرية اشتراكية وحدة، صور على جدران محال وبيوت المدينة لشخصية عسكرية يدعى سعد الدين شويرب هل هذا هو قائد الثورة؟ لكنه لم تمض بضعة أسابيع على تلك التساؤلات، حتى جاء إلى مدينة طبرق من يقطع الشك باليقين ويجيب عن تساؤلات المواطنين، أطل ضابط شاب نحيل العود، لا يتجاوز العقد الثالث من عمره، يتدفق حماسًا وحيوية يرتدي قيافة عسكرية، كان يقف على منصة في ميدان طبرق أمام جامع الملك، وشرع يخطب في الأهالي عن القضية الفلسطينية والوحدة العربية، يبدو تأثره بالرئيس جمال عبد الناصر، كانت تلك السنة سنة جفاف، والأمطار لم تسقط.. سارع المواطنون يقاطعونه، وهم يهتفون:

نبوا كسبه يا عقيد نبوا علفه الضأن تموت .

كأنه لم يفهم مطالبهم؟ أو لعله فهم لكنه يصر على خطابه القومي، انسحبوا من أمامه تباعا، بعد لحظات وجد نفسه يخطب لوحده في الميدان عن تحرير القدس والقضية الفلسطينية، والوَحدة العربية، وحوله أتباعه وبعض الضباط والمسئولين بالمدينة،.. وتردد اسمه يومها: إنه معمر القذافي.

وفي الصف الثاني الإعدادي اختفى زميلي دخيل محمد منذ عدة أيام، وعند عودتي من المدرسة طرقت باب كوخ خاله، أسأل عنه، خرج علي أحد صغار خاله

أجابني الصبي قائلا: - دخيل سافر بنغازي وخش الجيش.

وفي السنة الثانية اعدادي ، وذات صباح في حصة اللغة الانجليزية ، خاطب المعلم الطالبة التي أمامه ، وقبل أن يشرح الدرس الجديد قائلا:- البارحة حلمت بيك يا.....

قاطعه الطالب في سخرية ، متدخلا في الحديث :- كيف حلمت بها يا أستاذ؟

غضب المدرس وصرخ فيه بصون عال: اسكت يا حمار.

اقترب منه الطالب وفي نرفزة: لا تقل حمارا أنت الحمار.

وقعتْ المشادة بينهما بالأيدي.. وتدافع طلبة الفصل يفصلون بينهما، وعلى أثر تلك المشاجرة أقبل مدير المدرسة مسرعا ، وفصل الطالب وطرده من المدرسة نهائيا.

قرأت وأنا طالب في الاعدادية ، دواوين الشعر العربي القديم والحديث: المتنبي، عنترة بن شداد، زهير بن أبي سلمى، أبو تمام، أبو العتاهية، بشار بن برد، نزار قباني، ومحمود درويش، وسميح القاسم، وإيليا أبو ماضي، وكامل الشناوي، وبدر شاكر السياب وغيرهم.

كتبت العديد من المحاولات الشعرية عن العشق، وليالي السهر والمراهقة، كانت الكتابة في مرحلة المراهقة وسيلة لتفريغ شحنة عاطفية أو التعبير عن ذاتي.

أتذكر في الشهادة الاعدادية، أستاذ اللغة العربية المصري السيد عيسى، كان يشجعني كثيرا، ويعتز بما أكتبه خاصة في موضوع الإنشاء، وكان يأخذ كراستي ويقرأ موضوعاتي على الفصول الأخرى في المدرسة.

العمل صيفا في واحة الجغبوب

في بداية العطلة الصيفية دخلت على مدير مكتب العمل، كان ينكب على الملفات التي أمامه، نظر إلى بعد برهة من خلف نظارته السميكة.. تساءل:- ماذا تريد؟ رفع النظارة من على عينيه.

أجبته: -إنني أبحث عن عمل في العطلة الصيفية.

بادرني قائلا: -يوجد لدينا عمل تبعا للزراعة.

أجبته: -هل يمكن أن تسجلني.

بعد تردد قال: لكنه ليس في مدينة طبرق.

تساءلت:- أين إذن؟

- إنه في الجغبوب إن كنت ترغب أسجلك الآن .

دون أن أَنْبِسَ ببنت شفة انسحبت من أمامه في تردد.. تلك المنطقة النائية؟ كيف أصل إليها؟ وكيف أقيم هناك وهل يسمحان لي أبي وأمي بذلك؟

بعد عدة أيام تردّدت على المكتب من جديد، لكن للأسف لا توجد وظائف مؤقتة بالمدينة، دخلت علي مدير مكتب العمل من جديد الذي بادرني قائلا:

-هل وافقت على العمل في الجغبوب؟

أجبته:- نعم...

قال لي:- إذن أحضر إلينا صباح الغد لتحملكم السيارة إلى هناك.

وفي اليوم التالي صباحا كانت تقلنا سيارة اللاندروفر، نحو الجغبوب كنا ثلاثة شباب واحد اسمه حمدي الشلوي من نفس الحي الذي أقطنه، أعرفه جيدا، والآخر اسمه عطية الشاعري من مرسى دفنه، وسائقنا هو محمد بو أربعة،

يلقّب بهذا لأنه تزوج من أربعة نساء، رجل تخطى العقد الخامس من عمره، له تجارب عديدة في الحياة، تكررت زيارته للواحة عدة مرات.

عند مفترق المقبرة الفرنسية، انعطف بنا السائق نحو اليمين، ثم في اتجاه قاعدة العدم كان ثمةَ بيوت عشوائية على جانبي الطريق المرصوف، ثم اتجه بنا نحو الجنوب الشرقي ،عندما اقترب من القاعدة الجوية قائلا لنا:- هذي هي طريق الجغبوب.

ثم شرع يحدثنا عن الجغبوب ونخيلها الشامخ، وطيبة أهلها وناسها.. طريق طويل ثعباني يتلوَّى، لا عشب ولا أشجار على جانبيه، صحراء قاحلة، واللاندروفر تعلو بنا وتهبط.. لا طير يطير، والأرض بنية اللون، بعد ساعات لاحت لنا الأسلاك الشائكة على يسار الطريق، قال السائق بوأربعة:- هذا الشبردق من أيام الحرب الإيطالية داره جرسياني حتى يمنع المساعدات عن المجاهدين الليبيين.

وبعد ساعات لاحت لنا الواحة، وأشجار نخيلها الشامخ، توقفت بنا السيارة أمام مبنى مطلي باللون الأبيض، في مدخل الواحة قال لنا السائق:- هذي الاستراحة.

ترجّلنا من السيارة كان الإجهاد يبدو علينا، كنا نتفصّدُ عَرَقًا، كان مدير الزراعة يقف في استقبالنا ومعه بعض العاملين، رحّبوا بنا.. أدخلونا مربوعة المبنى، ثم أشار أحدهم إلى الحمام، رَيْثَما يجهز الغداء، بعد ساعة كنا قد توضأنا وصلينا الظهر، تناولنا وجبة الغداء، شربنا الشاي الأخضر، ثم استأذن السائق عائدا إلى طبرق، وحيانا متمنيًا لنا التوفيق في عملنا الجديد، بينما نهض مدير الزراعة عائدا إلى بيته، وأبلغنا أنّه سيحضر إلينا عند صلاة المغرب، لتناول وجبة العشاء عنده، كانت في الاستراحة العديد من الحجرات، خلدت للراحة والنوم في إحدى الغرف، بينما فعل رفيقاي نفس الشيء،

كانت رحلة شاقة ومضنِية في سيارة اللاندروفر، وعلى طريق متهالكة، استيقظنا قبل المغرب بقليل، كان الحاج طاهر مدير الزراعة قد وصل، حينها توضأنا ولبسنا أحذيتنا، ومشينا على الأقدام باتجاه الواحة، صعدنا إلى مسجد الواحة، كانت بيوت الواحة مبنية بالطوب الأبيض ومسقوفة بالأخشاب، اقتربنا من المسجد، وهو فناء كبير ذو طراز إسلامي متقَن، وبجواره الكتاب الذي يتم فيه تحفيظ القرآن الكريم للطلاب!

بالإضافة إلى خلاوي للطلبة، وهي حجرات صغيرة لسكن طلبة الداخلي، من دورين وبيوت محفظي القرآن... ومبنى خاص باستقبال الزوار وضيوف الجغبوب.

دخلنا المسجد، كان صحن الجامع عبارة عن فناء فسيح تتخلله أقواس، في وسطه صهريج حجر لماء الوضوء، وفي أقصاه باب من خشب الأبنوس رائع النقش، يؤدي إلى داخل المسجد، وهناك باب آخر يفضي إلى خلوة داخلية، تعلوها قبة منقوشة مطلية بألوان خضراء وحمراء وذهبية، وعلى الأرضية التي تحت القبة يقع شباك برونزي دقيق، وفي وسطه أبواب على هيئة أقواس، بينما ثبّت على واجهته لوحتان، إحداهما نقش عليها شجرة العائلة السنوسية، والأخرى مدون عليها النص الكامل لآيات القرآن الكريم، مكتوبة بحروف صغيرة، وفي داخل الضريح السنوسي الكبير السيد محمد بن علي السنوسي.

كان في استقبالنا شيخ طاعن في السن، ذو لحية البيضاء رحب بنا..

عرفنا به مدير الزراعة قائلا:- هذا الشيخ نصيب الشاعري.

قرأنا الفاتحة على ضريح السيد محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية، ومن معه من السادة السيد الشريف السنوسي، والسيد صفي الدين السنوسي، والسيد الرضا محمد المهدي السنوسي، ثم صلى بنا إمام

المسجد الشيخ نصيب صلاة المغرب، في جماعة بعد الدعاء وصلاة ركعتين، خرجنا مع الحاج طاهر، ومشينا على الأقدام، حتى اقترب من محل تِجاري، استقبلنا شاب بالتّرحاب، اقترب الحاج طاهر من الثلاجة، ومد لكل واحد منا علبة عصير عنب، ثم التفت إلى الشاب قائلا:

-أي واحد من هذه الوجوه الطيبة، يأتي إليك أعطه ما يريد، فهمت.

هزّ الشاب رأسه بالإيجاب.. ثم التفت إلينا الحاج طاهر: هذا دكاني وهذا ابني محمد.

صحبنا إلى المربوعة في بيته، تناولنا عشاء دسما عنده، ثم عدنا للاستراحة من جديد للنوم والراحة.

ومع إشراقة الصباح، أقبل الحاج طاهر ليأخذنا للعمل في المزرعة، هناك كان في استقبالنا الريفي، هو ضخم البنية أسمر البشرة، كانت بيده مسحة كبيرة يحفر بها أحواض البرسيم، تركنا عنده ومضى ذلك المسئول، لأول مرة في حياتي أتذوق شرب اللاقبي الطازج البارد لونه مثل الحليب، وبدأنا في عملنا وهو إحصاء النخيل التابع لمشاريع الزراعة ذكر لنا أنواع التمور، ووفّر لنا مدير الزراعة بعد يومين ، منزلًا شعبيًا حديثًا للإقامة فيه، طيلة فترة عملنا، وتعرفنا على أهالي تلك الواحة الجميلة، الذين يوصف أهلها بالكرم والطيبة والنقاء، سيدي نصيب الشاعري وأبناؤه وأحفاده، الحاج طاهر بوانغيره، الحاج أحمد المهدي، الحاج محمد اقناو وعائلته، وصالح زويله وعائلته وغيرهم من عائلات الواحة التي تعيش في ألفة ومحبة ومودة .

زرت مكتبة الجغبوب الضخمة، في تلك الزاوية العريقة التي أسسها السيد محمد بن علي السنوسي، وولد فيها ملك ليبيا الصالح إدريس السنوسي، وتعلم بها شيخ المجاهدين عمر المختار، ويوسف بورحيل، ورجب بوحويش وغيرهم.

أتذكركيف كنت أقضي أوقات فراغي، في الذهاب إلى تلك المكتبة، الغنية بأمهات الكتب وموظفها الجليل سيدي الشارف عبد الله، الذي أتاح لي فرصة الإعارة للكتب، فشغلت وقتي بعد الظهيرة، بقراءة مؤلفات عباس محمود العقاد، وطه حسين، وخالد محمد خالد، وروايات عبد الحميد جودة السحار، وكامل الكيلاني وغيرهم .

وكتبت هناك في الجغبوب، قصة قصيرة بعنوان (برقية)، وبعد مضي ثلاثة أشهرعمل في واحة الجغبوب، عدت إلى أهلي في الحطية محملا بالتمور ورب التمر.

التدريس في القعرة أولا

عندما يتخرج المعلم في مدينتي، لا بد أن يقضي سنواته الأولى في التدريس خارج المدينة، وهذا ما حدث لي، ولدفعتي من خريجي المعلمين سنة ١٩٧٤م ، صدر قرار تعييننا، بعد التدريب في المقاومة الشعبية، والتدريب العسكري العام، ظهر تنسيبنا للمدارس خارج المدينة، مع بداية العام الدراسي، وجدت اسمي ومعي معلم آخر، منسّبان للتدريس بمدرسة القعرة، التي تقع شرق المدينة على الطريق الرئيسي، بحوالي ثلاثين كيلو متر.

سألنا عن مدير تلك المدرسة قالوا لنا: -إن اسمه عبد السلام التاوسكي، ويسكن في حي المنارة.

ذهبنا إليه في منزله ذات عصر، رحب بنا المدير، وكان لديه خبر بتنسيبنا إلى مدرسته قائلا لنا:

- معنا مدرّس عنده سيارة بيجو، يحملنا كل صباح إلى المدرسة، ويعود بنا مع الظهيرة.

وتساءل قائلا: وأنتما أين تسكنان؟

أجابه زميلي: في الحطية!

- إذن غدا السابعة صباحا نجدكما عند سانية النيبو على الطريق.

وفي صباح اليوم التالي كنا في نفس الموعد وفي نفس المكان، توقفت أمامنا سيارة بيجو ٤٠٤، دلفنا داخلها في الكرسي الخلفي، بعد تحية الصباح على الجميع، كان مدير المدرسة التاوسكي يجلس إلى جوار السائق المعلم علي الرياني، وفي الوسط يجلس المدرس صلاح اعويضة، بعد نصف كنا نترجل من

السيارة أمام مدرسة القعرة، المنطقة صغيرة، بها مساكن شعبية على يمين الطريق، ومستوصف وبريد، كان مبنى المدرسة قديما وموزعة على شكل فصول متفرقة، بها من الصف الأول حتى السادسة ابتدائي، كان في انتظارنا الأستاذ/ راقي المرضي وهو من المنطقة، هو يدرس مادة العلوم للصفين الخامس والسادس، سلّمنا عليه، وعلى المباشرين بو اشوال، وعبد المالك، والتومي.. استلمت أنا تدريس اللغة العربية والتربية الإسلامية للصفين الخامس والسادس، وزميلي علي دعبس استلم تدريس فصل سنة رابعة، وبقية المدرسين تدريس الفصول الأخرى.. بعد أن رن جرس الاستراحة تجمعنا في غرفة المدرسين للإفطار، وجبة بيض وخبز التنور، ثم الشاي الأحمر، وتجاذبنا أطراف الحديث، والمباشر التومي الذي يبدو في العقد السادس من عمره، يحكي لنا عن ذكرياته، أيام الغزو الإيطالي للبلاد.

التلاميذ والتلميذات الذين ندرس لهم، هم يسكنون القعرة، والسقايف المجاورة لها، كانت وجوههم قد لفحتها الشمس أيام الحصاد والرعي بالأغنام، متعطشون للعلم والمعرفة، وعند الواحدة ظهرا نغادر المدرسة، في سيارة علي الرياني، وعند الواحدة والنصف نترجل أنا وزميلي منها أمام مزرعة النيبو، ونسير على أقدامنا حتى نصل الحطية.. وهكذا كل يوم عدا الجمعة وأيام العطلات الرسمية، ومع نهاية كل شهر كنا ندفع له كل واحد خمسة دنانير للمعلم، وعندما تتعطل سيارته يحل بدلا منه صلاح عويضة بسيارته التايوتا حيث يقوم بإيصالنا للمدرسة.

حببت لتلاميذي هواية القراءة ، كنت أشتري لهم من مكتبة علي ليدي بالمدينة، نسخا من مجلات الأطفال، ليطلعوا عليها، ويتبادلونها فيما بينهم، كانوا يسرون بها ويبتهجون في الاطلاع عليها.

توثّقت علاقتي بالمدرس صلاح، كان يبدو في مثل سني، أبيض البَشَرَة مديد القامة، لديه طموح واسع وعريض، تخرج حديثا في معهد المعلمين بنغازي، انتقلت عائلته الكبيرة من بنينة إلى طبرق وسكنوا في كوخ في المطار القديم، كان يزورني بين الحين والآخر في الحطية، بسيارته لنأخذ جولة داخل شوارع المدينة، التي كانت سياراتها محدودة، وغير مزدحمة.

لمحت في إحدى الشوارع مدرسا من دفعتي، هو محمد الصاوي ، طلبت من صديقي صلاح التوقف، وقفنا بالقرب منه، ثم بادرني بعد التحية والسلام قال لي: لا تنس اجتماع الغد الساعة الخامسة عصرا..

أجبته: نعم سوف أحضر..

وبعد أن غادرنا ذلك المدرس على قدميه، واختفى في أحد شوارع المدينة، سألني صديقي:

-ما هو هذا الاجتماع؟

قلت له: -هذا اجتماع رابطة الطلبة العرب الناصريين.

بادرني في لهفة:- هل يمكن أن أنتسب لهذه الرابطة؟

قلت له:- لامانع احضر معنا غدا الاجتماع وسجل.

ووصفت له المكان، والمقر الدائم للرابطة، وفي الموعد المحدد كان اجتماع الرابطة بكامل أعضائها، بمكتبها في شارع فلسطين، شباب وفتيات من المدينة، وحضر صديقي صلاح وسجل في الرابطة، أطل علينا ضابط طويل قمحي البشرة، شعره أسود قدمه لنا رئيس الرابطة قائلا:- أقدم لكم محاضرة اليوم للنقيب إدريس الشهيبي، عن الحرية والوحدة العربية، نرحب به باسم رابطة الطلبة العرب الوحدويين الناصريين طبرق..

واستمر تواصلنا واجتماعاتنا ولقاءاتنا ونشاطنا في تلك الرابطة الناصرية..

حتى تم إلغاؤها من قبل النظام بعد عدة سنوات، خوفا من أن تتحول إلى حزب خاصة، وإن النظام يجرم الأحزاب ويعتبرها خيانة عظمى للبلاد، واستبدلت رابطة الناصريين بحركة اللجان الثورية..

في عطلة نصف السنة ، اتفقنا أنا وصلاح عويضة وعلي الرياني، على القيام برحلة سياحية إلى الأسكندرية، ومعنا أيضًا موسى الصابر، وعبد الستار رجب، لبضعة أيام، أقلنا علي الرياني في سيارته البيجو٤٠٤، بعد العصر وصلنا الأسكندرية، أجر لنا شقة نظيفة في فيكتوريا، صديقنا علي الرياني يخبر الإسكندرية جيدا، يحفظ أحياؤها وشوارعها ، هو لديه زيارات سابقة لها، حكى لنا أنه عندما تم تعيينه وتنسيبه لمدرسة نائية في قصر الجدي، كيف غضب ورفض المباشرة فيها، وبدلا من أن يذهب لتلك المدرسة، سافر للأسكندرية، وبقي بها لمدة شهر، عندما عاد علم رئيس التفتيش التربوي، بعدم مباشرته بمدرسة قصر الجدي، نسبه إلى مدرسة القعرة، فوافق هو بذلك وباشر التدريس معنا، لأنه يستطيع العودة كل يوم عند الظهيرة لوالدته العجوز، والتي ليس له إلا هي في طبرق..

هو الذي أجر لنا الشقة في فيكتوريا، وجمع من كل واحد منا مبلغا من المال، حتى يتم الصرف منه على المأكل والمشرب، قضينا أياما جميلة في الأسكندرية، على الرغم من أنني كنت عبئا ثقيلا عليهم.

زرت مكتبات الأسكندرية في محطة الرمل، وشارع النبي دنيال بالقرب من محطة مصر، وعدت بمجموعة كبيرة من المجموعات القصصية، وأعداد مختلفة من مجلة العربي.

قرأت قصص يوسف إدريس، والطيب صالح، ويوسف الشاروني، ونجيب محفوظ، ومحمد عبد الحليم عبد الله، وعبد الرحمن الربيعي، وميخائيل نعيمة وغيرهم.

التدريس في الحاج كريم ثانيا

نسبت في العام الثاني ١٩٧٥- ١٩٧٦م، لمدرسة الحاج كريم، شرقي القعرة بحوالي عشرة كيلو، نهضت مبكرا في ذلك الصباح الخريفي.. توضأت وصليت الصبح.. ارتديت بدلتي الوحيدة وحذائي الجديد.. كل من في البيت كانوا يغطون في سبات عميق.. عدا أمي التي كانت قد نهضت ، جهزت لي كوب الشاي بالحليب، وقدمته لي مع قطعة من الخبز، وعند خروجي أمطرتني بوابل من الدعوات، توجهت على قدمي نحو محطة الأجرة، الواقعة مقابل جبيلة النور، ما أن وصلت إلى هناك، حتى اقترب مني أصحاب سيارات الأجرة وهم يرددون في وجهي ويقتربون مني :

-بنغازي... درنة... البيضاء..

قلت لهم: - أريد منطقة الحاج كريم.

تراجعوا للخلف خطوات، بعد برهة تقدم نحوي أحد السائقين قائلا:

-أوصلك للحاج كريم، على شرط تدفع أجرة مساعد .

بعد تردد هززت رأسي بالإيجاب، ركبت سيارة البيجو ٥٠٤ المتهالكة، وتذكرت زميلي الذي تعين معي عندما بادرني:- أنت محظوظ يا صديقي اللي تعينت في الحاج كريم، أنا تعينت في مدرسة قابس البعيدة في الشط..

وقال لي آخر: - أنت باهي أقريب، أنا نسبت لمدرسة الشعبة في وسط الصحراء..

قال السائق:- ننتظر قليلا ريثما يأتي الراكب الأخير، ثم ننطلق نحو مساعد.

والراكب لم يأت بعد طول انتظار، أقبل نحونا السائق بعد قليل قائلا:- الراكب لم يأت ما رأيكم ان تشتركوا أنتم في دفع أجرته؟ حتى نتوكل على الله.

وافق الركاب الستة وجمعوا مبلغ السائق السابع، شغل السائق محرك سيارته، وداس على البنزين وأقلعت بنا السيارة على الطريق الأسفلتي الرئيسي المتجه نحو الشرق، تحسست خطاب التنسيب في جيبي، وبوعباب يصرخ بصوت عال في مسجل السيارة:

-وين الغالي يا داروينه كاحل لنظار.

بعد أن تركنا القعرة خلفنا بعشرة كيلوات، هدأ السائق من سرعة سيارته، وأوقفها على اليمين، وطلب مني الترجل، بعد أن نقدته أجرته، وأشار لي على اليمين بالسير نحو الغرب.

سرت بحذائي الجديد على الطريق الترابي، الذي أخذني نحو الغرب، الشمس في ظهري، والطيور تتطاير من حولي، مسحت المكان بعيني، بعد أن قطعت مسافة لاحت لي بيوت صغيرة واطئة وبراريك من الزنك، سرت نحوها مررت بجانبي تلميذة كانت تمتطي مع أخيها الحمار الأشهب اللون، اقتربت منها وصلت المدرسة، كانت الحمير مربوطة خلفها، وسيارة مازدا خيمة وأخرى تايوتا أمامها، المدرسة مبنية بالحجر الطبيعي، ومسقوفة بالزنك والخشب، مدرسة مبنية بالمجهود الذاتي، عند الباب استقبلني مدير المدرسة، كان نحيف القامة، يرتدي قميصا ناصع البياض وبنطلونا أسودا، قدمت له نفسي ورحب بي، أخذني إلى داخل الإدارة، عرفني بأسرة التدريس قائلا:

-هذا حسن علي، وهذا فرج قطيش، وهذا فرج أحمد، وهذا علي محارب أخي، وهذا عمران عبد الله، وهذا تعرفه جاء قبلك بأسبوع رجب مرايف.

تلاميذ المدرسة كانوا قد دخلوا فصولهم الصغيرة، يبدو أنني تأخرت في الوصول ، الإدارة كانت بها بضعة كراسي، وفي الواجهة على الحائط صورة في إطار لشيخ بجرده الأبيض، وتحته القاط ملف، وجهه المدور العريض وشاربه الأسود، وقد كتب تحت صورته المجاهد كريم راقي هاشم السعيدي، توفي في الخامس من أغسطس سنة ١٩٦٠م.

التفت إلي الأستاذ عبد الله محارب، الذي تخرج قبلي ببضعة سنوات قائلا: هذا الغوط الذي تقع فيه المدرسة يسمى غوط الركب، وكل السكان هنا أبناء عمومة إلا عائلة أو عائلتين... مددت له برسالة التنسيب، وضعها في ملف جديد في دولاب خشبي، أخذني مدير المدرسة وقدمني إلى فصل سنة سادسة ابتدائي، الفصل مختلط تلاميذ وتلميذات، ولكنهم تجاوزوا العشر سنوات من أعمارهم. وجوه شاحبة سمراء، صف للتلاميذ وصف للتلميذات لا يتجاوز عددهم جميعا عشرين بين طالب وطالبة، لا يرتدون الزي الموحد.. قمصان وبنطلونات مختلفة..

ونظرا لبعد المسافة بينها وبين المدينة، وعدم توفر وسيلة المواصلات للمدينة ، قررت الإقامة بالمدرسة، مشى بي المدير إلى غرفة صغيرة منزوية، بها سرير حديدي، ودولاب خشبي قديم:- وهذي غرفتك.

ثم عدنا للإدارة وحدثني المدير عن المدرسة: هذه المدرسة أُنشئت قبل الثورة سنة ١٩٦٦م، وكان أول مدير لها الأستاذ أحمد خالد عبد النبي، ثم تولى إدارتها بعده الأستاذ عمران عبد الله الفزاري، وكان يحضر إلى المدرسة على دراجته الهوائية، فقد كان يسكن قريبا من هنا، في مكان يسمى أعقير البوم سقيفة الخنق، أما أنا لي عدة سنوات في إدارة هذه المدرسة.

ثم خرج بي من باب المدرسة، ووصف لي مكانا يقع جنوبي المدرسة بأمتار:

-تلك بئر المياه التي نشرب منها.

واطلق عنان بصره نحو الغرب:

وتلك المبنى هو مسجد القرية.. وعلى بعد أمتار منه ثمة مقبرة.. يسكن في هذه القرية أبناء المجاهد كريم وأحفاده وبعض العائلات الأخرى.

وبعد أن ضرب جرس الاستراحة اليدوي، خرج التلاميذ والتلميذات من الفصول، انتقلنا إلى حجرة المدرسين، أطل المباشر سليمان بو معلق بخبز التنور وجبة البيض في آنية، وشرعنا في تناول الإفطار، جلوسا على فرشة قديمة، وبعد ذلك جاءنا الأستاذ فرج أحمد ببراد الشاي الذي كان يطبخ على كانون الحطب، قبل الإفطار بقليل ومدّ لي بطاسة الشاي الأحمر، وأشعل هو سيجارة.

دخلت الفصل بعد الاستراحة، وأعطيتهم حصة في القراءة، ثم الحصة الثانية كانت إملاء اختبارية، حتى أقيم مستوياتهم في القراءة والكتابة..

عدت إلى طبرق في ذلك اليوم مع أحد مدرسي المدرسة، من أجل تجهيز ملابسي وحاجياتي، وتسليم رسالة المباشرة إلى التعليم، والعودة على أن أقيم في تلك الغرفة أيام الأسبوع الدراسية، والعودة إلى الحطية في كل خميس فقط.

وفي غوط الركب كانت تسكن قبيلة القطعان بو سعيدة، منها عائلات كريم راقي وهم: حمد، وإدريس، ومحمد، وراقي، وعائلة السنوسي عقاب، وعائلة الناجي عقاب، وعائلة صالح عقاب، وعائلة الهمالي، وعائلة اغفيري، وعائلة الهاين مبكائيل، وعائلة ضوقه اكريم الرطاز، وعائلة حفلش رواق، وغيرها من العائلات.

كنت أدرس لطلاب وطالبات الصفين الخامس والسادس اللغة العربية، الفصل يقسم إلى صفين من المقاعد صف للطلبة وآخر للطالبات، بدأت في التعرف على تلاميذي من اليوم الأول واحدا واحدا، كان أهالي تلك المنطقة يدعونني كل ليلة، لتناول وجبة العشاء في منزل من منازلهم، أنقطع عن زيارتي صلاح فلم نعد نلتقي إلا عصر يوم الخميس، حيث كنت أعود لأسرتي في الحطية مع نهاية الأسبوع.

سرعان ما انتهى العام الدراسي، انتقلت بعدها للتدريس بالمدينة، وبالتحديد في الحطية مدرسة الشهيد طيار صالح رحومة، كانت تطل فوق رَبْوة عالية، بين الحطية وسوق العجاج، تلك المدرسة أمضيت أدرس فيها عدة سنوات، ثم انتقلت بعد ذلك إلى مدرسة الضاحية الإعدادية.

صلاح هذا لم تنقطع علاقتي به، عندما انتقلت من القرى، كنت أجلس إلى جواره في سيارته التايوتا القلع السماوية اللون، بعد العصر نتجول دائما في شوارع المدينة الغير مزدحمة، ثم نتناول العشاء في إحدى المناسبات الاجتماعية، سواء كانت عرسا أم مأتما.

سينما حلمي والشرطة العسكرية

ما زلت أتذكر تلك الأمسية التي دخلت فيها سينما حلمي مع صديقي محمد عطية، لمشاهدة فيلم أمريكي من الأفلام الحديثة، وبينما نحن نستمتع بمشاهدة بطل الفيلم وهو يطيح بتلك العصابة، التي اعترضت سبيله، واحدا تلو الآخر بمسدسه الذي دائما يصيب الهدف، وفجأة تضاء أنوار الصالة.. يتوقف عرض الفيلم.. جنود من الشرطة العسكرية يدخلون علينا فجأة.. يترصدون لنا.. يشيرون لنا بأصابعهم للنهوض في غطرسة وكبرياء.. يأمروننا نحن الشباب للخروج أمامهم قلت لهم في غضب: - إنني أعمل مدرسا.

أحدهم يهتف بي في قسوة وخشونة: - نحن نريدكم جنودا في الجيش الليبي.

كنت أظن أنهم سيدعونني أكمل بقية مشاهد الفيلم، لكنهم أخرجونا عنوة، لا يفرقون بين معلم وجاهل من الشباب.

زجوا بنا في تلك الحافلة الواقفة أمام باب دار العرض، في غلظة وقسوة، والتي سارت بنا إلى غرب المدينة، حتى دخلت معسكر الجلاء.

كانت طبرق في تلك الفترة قد تحولت إلى ثكنة عسكرية، كل الكتائب والمعسكرات التي كانت في الجنوب والغرب تقاطرت عليها، واستقرت بها، بعد خلاف القذافي مع أنور السادات، والمناوشات التي كانت تقع على الحدود المصرية الليبية، معسكرات تكتظ بها المدينة في كل مكان، وتحت أسماء ومسميات عديدة: معسكر الناظورة، معسكر الجلاء، معسكر اللواء التاسع، الجحفل الثالث، معسكرات في البردي ومساعد والطرشة وباب الزيتون

وغيرها، اكتظت تلك المعسكرات بالجنود وضباط الصف والضباط من جميع المدن الليبية.

أمام أحد القواطع توقفت الحافلة.. جنود الشرطة العسكرية يدفعوننا للترجل، والإسراع في حلق الرؤوس، ما أن ترجلت مع غيري حتى رأيت العديد من الشباب يحلقون شعر رؤوسهم، شاهدت المدرس فوزي التاوسكي يصيح فيهم غاضبا وهم يحلقون رأسه حتى الجلدة:

-أنا فنان رسام معلم لا علاقة لي بالجيش.

والمعلم فتحي الرفادي يتساءل غاضبا:- أنا مدرس ومتدرب في المقاومة الشعبية أيش تبوا مني؟

أمام القاطع في الساحة، عدد كبير من الشباب ممن هم فوق سن الثامنة عشرة، لم أنبس ببنت شفة، لكنني شعرت بالضيق والغضب، تساءلت في حيرة بيني وبين نفسي: -كيف نتخلص من هذا المأزق، وهذه الورطة التي لم تكن في الحسبان؟

ما أن لمحت العرّيف أمجاور، جارنا في الحطية، حتى هرولت نحوه أنا وصديقي محمد عطية، سلمنا عليه، سألني: ما الذي جاء بكما إلى هنا؟

بادرته:- قبضت علينا الشرطة العسكرية في السينما.

رد علي قائلا وهو يتلفت خلفه:- هيا بسرعة أنت وصاحبك اتبعاني.

تسللنا خلفه دون أن يفطن لنا أحد، حتى وصلنا سيارته البيجو الخيمة، الواقفة هناك خلف شجرة عالية، أمرنا بالقفز داخل صندوقها الخلفي بسرعة، ثم أسدل القلع علينا في مؤخرة السيارة، وأدار محركها، وأقلع بنا دون أن يفطن لنا أحد، حتى خرج بنا من بوابة المعسكر، وعلى الطريق الرئيسي، وبعد أن قطع مسافة قصيرة أوقف السيارة، دعانا للنزول من الخلف، والجلوس إلى جواره في المقدمة.

ترجّلنا من السيارة بعد ربع ساعة، كنا في مدخل الحطية أمام الكوخ، وشكرته على انقاذه لنا، تنفسنا الصعداء نَجَوْنا بأعجوبة من قبضة الشرطة العسكرية، ومن يومها امتنعت عن دخول دور العرض في مدينتي، حتى ولو كانت تعرض فيها أحدث الأفلام.

وغرفتي الصغيرة، ذات السرير الحديدي والدولاب الخشبي الذي يحتوي ملابسي، والطاولة، والكرسي، والكومودينو، كنت أتركها تغرق في فوضى الصحف والمجلات والكتب المتناثرة، والملابس الملقاة هنا وهناك، أترك أمي وأختي تقومان بتنظيفها وتنسيقها، بعد استيقاظي المتأخر من نومي، وذهابي لمدرسة الضاحية على قدمي، حيث أقوم بالتدريس لطلاب ثالثة إعدادي، وعند الظهيرة أقفل عائدا من المدرسة كالعادة ، وفي طريق عودتي كنت أتقابل صدفة مع تلك الفتاة الجميلة، ذات الشعر الأصفر كأسلاك الذهب، والوجه المدوّر كالبدر، وهي ترتدي معطفها الأبيض، في طريقها للعمل بعد الظهيرة، في مستشفى الحرية، كنت أحيّيها وترد على تحيتي في خجل واقتضاب، شعرت يومها بالغبطة والسعادة تغمرني.. كانت تلك الفتاة مثار إعجابي واهتمامي، شعرت بميل شديد نحوها، وكأن هناك شيئا ما يجذبني نحوها، لا بد أن ألتقي بها في الغد أصارحها بمشاعري وحبي لها، وأتعرف رأيها في وهل تقدم أحد لخطبتها؟ هل في حياتها شخص آخر؟ أصل الكوخ، أتناول وجبة الغداء.. أحتسي كوبا من الشاي الأخضر بالنعناع، بعدها أخلد للراحة والنوم ساعة، مع العصر أصحو لقراءة الصحف والمجلات، أو قراءة رواية أو قصة أو كتاب في النقد الأدبي، أو كتابة قصة ما.

(ظللت ليلتها أحلم بلقائها، أنتظر رؤيتها على أحر من الجمر، يوم غد بلا ريب سوف أنتظرك، حتى تأتين وتلك هي اللحظات السعيدة، حين نلتقي لقاء الأحبة..

لم أدبر لحظات تلاقينا في الأيام الماضية، كانت الصدفة وحدها تجعلنا نلتقي دائما، أنا في طريق عودتي من المدرسة، وهي في طريق ذهابها إلى العيادة الصحية التي تعمل فيها بعد الظهر، وفي اليوم التالي إذا بها تطل قادمة، في نفس الموعد تختال في مشيتها بمعطفها الأبيض، وشعرها الذهبي، ما أن اقتربت مني حتى تشجعت، مددتُ لها يدي لها فلامست يدها الناعمة، كانت خجولة مرتبكة، خداها متوردان، أما العينان فعسليتان تجيل ببصرها في الأرض، غمرني إحساس غريب يجذبني نحوها بادرتها:

- كيف الحال؟

ردت في خجل وحياء:

- الحمد لله بخير..

بادرتها قائلا: هل ثمة أحد في حياتك؟

أجابت: - لا أحد..

- ما رأيك في أن نكون لبعض؟..

ابتسمت وهي تنظر للأرض في خجل، ثم لاذت بالصمت. السكوت علامة الرضا، وتلفتت خلفها كأنها خائفة من أحد، وهتفت في عجلة من أمرها: - إلى اللقاء الحافلة وصلت.

أعرف عائلتها المثابرة الكادحة، كانت تسكن في نفس الحي .

أسرع رحلة في حياتي الي طرابلس

أطل علي زميلي في مهنة التدريس ذات عصر، استقبلته عند باب الكوخ، رفض الدخول رحبت به: أهلا إبراهيم تفضل..

- بارك الله فيك...
- هيا ادخل تفضل حتى كوب من الشاي أو القهوة.
- لا شكرا إنني في عجلة من أمري جئت أبلغك بخبر.
- إن شاء الله خير...
- الخير يأتي به الله أنا وأنت مطلوبين للكلية العسكرية.

صدمت بالخبر وأحسست بالضيق، تساءلت:

- ما دخلنا نحن والكلية العسكرية؟

- إننا موجهان إليها منذ عدة أسابيع دون أن نعلم.

- من أبلغك بهذا؟
- بأمس استدعاني رئيس الشرطة العسكرية طبرق وحقق معي، ثم طلب مني أن أبلغك بضرورة سفرنا لمدينة طرابلس غدا صباحا، لإجراء الكشف الطبي.

ثم تركني في حيرة من أمري، وقفل راجعا إلى بيته في وسط المدينة، أظلمت الدنيا في وجهي أصبحت أضيق من سَمّ الخياط، أي عسكرية هذه وأنا في العقد الثالث من عمري، وأية كلية عسكرية، حتى عند تخرجي في معهد المعلمين، لعدم لياقتي الصحية لم أدخل المقاومة الشعبية أو التدريب العسكري العام لعدم لياقتي الصحية، ما دخلي

بالعسكرية وأنا مجرد مدرس لغة عربية، لم أنم ليلتها، أخبرت أبي وأمي بالأمر، لكنهما تركا لي الخيار، فهما لا يعرفان شيئا عن مثل هذه الأمور.

في صباح اليوم التالي طرق زميلي الباب خرجت له، ومعي حقيبة ملابسي، سلمت على السائق وهو رئيس عرفاء من طبرق، ودعت أبي وأمي وإخوتي، كانت أعينهم تركض خلفي، وأنا أقفز في تلك السيارة خلف زميلي انطلق بنا السائق على الطريق الرئيسي نحو الغرب، في أواخر شهر نوفمبر الجو بارد وممطر، والطريق ثعبان طويل يتلوى، ونحن نتجاذب أطراف الحديث، وزميلي يشعل سيجارة وينفث دخانها، ثم يشعل أخرى.

بعد ساعات خمس دخلت بنا السيارة مطار بنينة، وجدنا في انتظارنا عسكري التحريات بملابسه المدنية، أما سائق الرانجروفر، فودعنا عائدا إلى طبرق الغافية هناك في أحضان البحر، تزاحمت على ذهني الخواطر والمرئيات: تتذكر أصوات تلاميذك وزملاءك المعلمين في الضاحية، وفتاتك الجميلة ، صعد بنا عسكري التحريات الطائرة الفوكر، وإلى جواره جلس زميلي يتجاذب معه أطراف الحديث، تذكرت أن هذه هي الرحلة الثانية بالنسبة لي إلى طرابلس بالطائرة.. كانت الرحلة الأولى منذ عشر سنوات، لكنها كانت تختلف عن هذه الرحلة، كانت يوم أن فزت فيها بجائزة القصة القصيرة، من قبل وزارة الشباب بقصة: (مقبولة)، حجز لك يومها مكتب الشباب والرياضة طبرق، تذكرة سفر بالطائرة إلى طرابلس ذهابا وإيابا، ومنحك رسالة إقامة في جمعية بيوت الشباب، ركبت يومها الطائرة لأول مرة من مطار طبرق، لم تكن تعرف يومها حتى ربط حزام المقعد، إلى أن تقدمت نحوك المضيفة الشقراء الجميلة، ذات الشعر الأصفر القصير، وربطت لك الحزام، كنت يومها في غاية الغبطة والسعادة، والطائرة تحلق بك فوق السحاب الذي يبدو مثل العِهْن المنفوش.

بعد ساعة ودقائق، هبطت الطائرة في مطار طرابلس الدولي، أخذت سيارة أجرة إلى وسط المدينة حيث جمعية بيوت الشباب، قضيت ليلتك سعيدا في تلك الغرفة، ومع الصباح تناولت إفطارك، ركبت أول تاكسي إلى وزارة الشباب والرياضة، وهناك استلمت شهادة التقدير والجائزة النقدية.

وترجع بك الذاكرة، وتتذكر يومها كيف التقيت لأول مرة بالأديب الكبير علي مصطفى المصراتي، في مكتبة الفرجاني.

لكن في هذه الرحلة يبدو عليك القلق والأسى، يعتريك الخوف من المجهول، لا تدري ما سيخبئه لك القدر في الغد.

كأنك ذاهب إلى حتفك وطافت بذهنك تساؤلات عدة: هل ستعود إلى مدينتك طبرق؟ وإلى حي الحطية من جديد؟ هل ستعود إلى والدك وإخوتك والأصدقاء؟ هل ستعود لتلاميذك في الضاحية؟ الذين حببت إليهم القراءة وشجعتهم على التمثيل، تتذكر كيف أخرجت لهم أول مسرحية بعنوان: (نهاية المشوار) حضرت معهم البروفات، بعد أن قاموا بعرضها على مسرح المدرسة، حازت على إعجاب المشاهدين من أولياء أمور الطلبة، ثم عرضت مرة ثانية على مسرح معهد النفط، ثم مسرحية العربة عن قصة للكاتب ابراهيم النجمي، هل ستعود إلى فتاتك الجميلة ذات المعطف الأبيض، التي ابتسمت لك في آخر لقاء لك، وكيف كدت أن ترسل لها أمك وبضعة من نسوة الحي لخطبتها، غير أنّك اليوم لا تدري ما يخبئه لك القدر؟

أخذنا رجل التحريات بعد أن ترجلنا من الطائرة، وجدنا أنفسنا في سيارة عسكرية كانت في انتظارنا، حملتنا السيارة إلى معسكر في المدينة مع مغيب الشمس، ترجلنا منها أمام باب المعسكر، ما أن دخلنا من الباب الرئيسي حتى دفعنا الحرس ناحية اليمين، واختفى رجل التحريات ناحية اليسار، تناهى إلى مسامعنا صَرْصَرَة انقفال الباب الحديدي الذي أوصده الحراس خلفنا،

قادنا أحد الحرس إلى قاطع آخروأمرنا بالدخول، انطلقنا عبرممر مظلم طويل كان يخيم عليه الظلام الدامس، إلا من أصوات بعض الشباب، يتبادلون الأحاديث في الغرف المظلمة، بصيص من ضوء سجائرهم يلمع في الظلام، بحثنا عن غرفة شاغرة، عثرنا على ألواح خشبية جلسنا عليها في زاوية الحجرة، نستند على الحائط لا أسرة ولا بطاطين، ليلة باردة ظلامها حالك من أواخر ليال شهر نوفمبر، تذكرت أبياتا للشاعر عمرو النامي يقول فيها:

خطوت هنا منذ عام أمامي ظلام وخلفي ضباب
وصرت مفاتيح قفل رهيب ورائي وأطبق ليل العذاب
وبت رفيق الجدار الكئيب يحدثني عن شريط السراب

بيني وبين نفسي أخذت أسب وألعن مجيئي إلى هنا، لحظتها بدا لي أن سدًّا منيعا يحول بيني وبين مدينتي طبرق، الحطية، وأبي وأمي وإخوتي، ومدرستي وتلاميذي.. هل أنا في حقيقة أو في حلم أو في كابوس؟، سألت أحد الشباب قائلا:- اين نحن الآن؟

أجابني:- أنتما في سجن الشرطة العسكرية في منطقة بو سليم.

ما أن تسرب الضوء وطلع الصباح حتى تنفسنا الصعداء، فوجئنا بالحجرات كانت تكتظ بالشباب الذي ينامون على البلاط، بعد ساعة فتح العسكري الباب وأخذ يصيح: هيا تحرك خارج..

تجمعنا أمام المعسكر جاءنا ثلاثة من الجنود أحدهم صاح فينا:

- الهروب من المعسكرات في صف أول، والهروب من الكليات العسكرية في صف ثاني.

حملتنا الحافلة إلى العيادة الصحية المجمعة، في حي يسمى غرغور، تم توزيعنا على الأطباء أنا ورفيقي إبراهيم، من طبيب العيون إلى طبيب الباطني وطبيب الأنف والحنجرة، ثم رئيس اللجنة الطبية العسكرية، لمحت أحد الضباط من خارج المكتب بقيافته الأنيقة، عرفته إنه من مدينتي، لا بدّ أن أحدثه، أتعلق به تعلق الغريق بالقشة، وأشرح له ظروفي، وما الذي جاء بي إلى هنا؟ لعله يجد لي ولرفيقي مخرجًا من هذه الورطة، لكنه ما أن لمحني حتى أشاح بوجهه عني، وفي لمح البصر سرعان ما اختفى.

من معلم الي طالب في الكلية

بعد أن أكملنا الكشف الطبي والمقابلة، أمرونا بالانتظار أمام مبنى العيادة،رثيما تجهز النتيجة .. وبعد أكثر من ساعة أطل علينا ضابط من الكلية، ومعه قائمة الأسماء بدأ يقرأ بصوت عال أسماء الطلبة المقبولين في كلية الشعب المسلح، عندما نطق باسمي الضابط أصبت بصدمة قاسية، تمنيت وقتها أن أعود من حيث أتيت، لكن ما باليد حيلة، حملق في الضابط

- لا تحمل همًّا هذا قدرك، رفيقك يتحصل على غير لائق وسيعود إلى مدينتك، بينما تبقى أنت لتلتحق بالكلية.

تحصل زميلي ابراهيم على غير لائق، وقال لي إنه سوف يبقى ليوم الجمعة القادم في طرابلس، حتى يقوم بزيارتي في الكلية..

بعد لحظات ارتميت على أحد كراسي الحافلة، في خيبة وأسى أتساءل:

-ما الذي جاء بي إلى هنا؟ يا له من حظ عاثر سيئ، الذئب الحريص يقع بأرجله الأربعة.

ما أن دخلت الحافلة من باب الكلية، حتى أحسست بالضيق والانزعاج، كمن يحملونه إلى حتفه ترجلت مع غيرك من المستجدين، أحاط بكم بضعة طلاب المتقدم ببزاتهم العسكرية، وهم يكشرون عن أنيابهم كالذئاب، ويصرخون فيكم بسخرية واستهزاء:- هيا تحركوا هرولوا عدة مرات حول الساحة.

وقال ثانٍ: - هذه الساحة هي مصنع الرجال.

وردد ثالث وهو يقهقه: - هذا ليس ليسانس ودبلوم عجائز.

وقال آخر:- هيا هرولوا على الساحة كل واحد منكم يردد اسمه الثلاثي بصوت عال.. أخذت تهرول حول الساحة مع المستجدين، تصيح باسمك بصوت مرتفع: أنا الطالب المستجد... بعد دقائق أوقفونا قاموا بتوزيع ماكينات حلاقة عادية علينا، أمروا كل مستجد منا أن يقوم بحلق رأس زميله المستجد، بالمقص وشفرة الحلاقة.. وبعد دقائق هرولنا باتجاه المخازن استلم كل واحد منكم (كتا) أخضرا، بداخله بدلاته وأحذيته وجواربه وأغطية الرأس وحزامه العسكري.

ومن يومها ودعت الحياة المدنية، انخرطت في حياة عسكرية شاقة قاسية.. أصبحت مجرد رقم فقط ونسيت حتى اسمي الحقيقي كنت تخاطب: هرول صفر ثلاثة.. انبطح صفر تلاتة استعد صفر تلاتة استرح صفر ثلاثة.. انزل بروك صفر ثلاثة.

البروك والهرولة والدحرجة وشتائم عراقية، تعلمها الضباط الليبيين الذين تخرجوا في العراق وتدربوا هناك، وصلت إلى أذنك مفردات جديدة: خرقة.. ازمال.. أثول.. حيوان...

المستجد يسمع وما يرد.. الحائط الذي أمامك نقول لك: لونه أسود، وهو أبيض، تقول: - أسود فهمت؟ تخالف التعليمات يا ويلك.

لم يعرف أحد من الطلبة أو الضباط في الكلية في سنة المستجد، أنني كاتب مقبولة، أو صاحب كتاب شاعر معتقل العقيلة.

هذه الكلية التي وجهت إليها سنة ١٩٨٣م رغما عني ودون رغبتي وعلمي، وبمزاج ثلة كانوا يعتلون مكتب الاتصال باللجان الثورية، هذه الكلية كانت تسمى كلية الشعب المسلح، أنشئت سنة ١٩٨١م بطرابلس بمنطقة عين زارة، وكان هدفها تخريج ضباط لقيادة التشكيلات من أفراد التجييش،

التحقت أول دفعة بهذه الكلية مع بداية نوفمبر ١٩٨١م، وتخرجت فيها بتاريخ ١٩٨٣/٩/١م تحت ما يسمى قيادة تجييش المدن.

وكنا نحن الدفعة الثانية خليط من قليل من الطلاب، وضباط الصف الحاصلين على الثانوية العامة، والأغلبية من مدرسي التعليم من مختلف المدن الليبية.

الأشهر الأولى في الكلية كانت قاسية جدا، حياة مختلفة عن الحياة المدنية، إلا أن الجهد الكبير الذي كنت أبذله، أعانني على تحمل المعاناة والمشاق، رغم ضعف جسمي والنحول الذي طرأ علي، كان معي خمسة طلاب المستجد من مدينتي، من المعلمين الضباط، موزعين على الحضائر الأخرى.. كنا ننهض في الصباح الباكر، نتدافع على الحمامات ودورات المياه، لغسل الوجوه والحلاقة بسرعة وحيوية ونشاط، ونقوم بنظافة القاطع والحجرات التي نقيم فيها يوميا حتى نسمع بوق الكلية، نهرول نحو الساحة سريعا في سرايا وندخل المطعم لتناول الإفطار كل ثلاثة في علبة حليب، وقطع من البسكويت اليابس، بعد دقائق نخرج للساحة من جديد.

الكلية العسكرية كانت تتكون من كتيبة المستجد، وكتيبة المتقدم، الطلاب المستجدون يقيمون في عنابر خاصة بهم، والمتقدم في عنابر خاصة بهم، الدراسة في الكلية العسكرية نظرية وميدانية، الدراسة النظرية هي محاضرات في التاريخ العسكري، والجغرافيا العسكرية، والأمن الحربي، واللغة الإنجليزية، وقانون العقوبات العسكري، والرياضيات والمنطق، والقانون الدولي والتعبية ومهنة الميدان، الدراسة الميدانية في الساحة المشاة والأسلحة الخفيفة والمتوسطة.. ضباطها كثر وكذلك ضباط الصف والجنود.

في سنة المستجد كانت كل تحركاتنا بالهرولة، سواء في الدخول إلى المنامات أم الخروج منها لساحة الجمع، ترتيب الأسرة والدواليب يوميا كل صباح، وكذلك الحلاقة للوجه وتلميع الأحذية..

مضت أشهر المستجد بطيئة وثقيلة، تعليمات وأوامر عسكرية جافة، إرهاق وإجهاد بدني لانعرف للنوم والراحة طعما، على تلك الأسرة الحديدية إلا في ساعة متأخرة من الليل، ناهيك عن الاستيقاظ المبكر للرياضة.

أتذكر تلك الساحة في الجمع الصباحي، ونحن في شهر ديسمبر بشتائه القارص، وبرودته التي تقشعر لها أجسادنا، النحيفة المنتصبة في الساحة كالخشب المسندة، أحذية سوداء تلمع ووجوه حليقة وترجع بك الذاكرة إلى فتاتك الجميلة ذات المعطف الأبيض وشعرها الذهبي المسترسل على كتفيها كأشعة الشمس، وأنفها الروماني الدقيق ووجهها الجميل البض، وكيف كنت تلتقي بها في الطريق وتحييها، وترد على تحيتك، لكن ها هي الأقدار قد باعدت بينك وبينها، هل هي ما تزال على عهدها؟ أو اختطفها فتى أحلامها ورحل بها بعيدا؟ شردت معها بينما سرب الحمام الذي كان يحلق فوق سطح القاطع، الذي نقيم بداخله..

يا حمامة عدي وطيري للمحبوب
قولي له راني مريف
والشوق دوّبني دوب
يا حمامة طيري طيري وعدي للمحبوب

تشرد مع مدينتك طبرق التي يحتضنها البحر من ثلاث جهات، منحتك محبتها وودها وأحيائها العديدة: جبيلة النور، الحطية، والجبيلة الشرقية، والمطار القديم، والمنارة، وسوق العجاج وبوذوه.

وفي أحد أحيائها الفقيرة البائسة تتذكر كيف قضيت أجمل أيام طفولتك وصباك، إنه حي الحطية بأكواخه العتيقة شرقي سوق العجاج وحتى مقبرة الجدارية، وصوت الفقيه إبراهيم البعجية في المساء، بزاوية سيدي عطية الجراري، والمديح والذكر والشاي يالكاكاوية، أتذكر طبرق بمكتبتها العامرة بأمهات الكتب الأدبية والعلمية، والمركز الثقافي الذي ينتصب شامخا في مدخل المدينة، ومقهى شلغوم ومقهى دمدوم، وأزعيط الذي كان يبيع الكاكاوية الفول السوداني والزريعة اللب، أمام سينما الزني أو سينما حلمي، وفجأة أحسست بيد الضابط البرونزي آمر الفصيل، تمتد إلى ظهري بقسوة وصاح في وجهي وشرر الغضب يتطاير من عينيه:

- أنت أيها المستجد الأحمق لقد خرقت الضبط والربط.

سرعان ما فطنت لنفسي أصلحت من وضع رجلي، كان الفصيل يقف في حالة استعداد، وأنا أقف في حالة استراحة.. يا لي من غبي.

وبعد الغداء كان اسمي في قائمة المعاقبين في الساحة، بالتعليم الإضافي، عقاب بدني عنيف، هرولة وزحف ودحرجة في الساحة، حتى انسلخت ركبتي وتقاطر دمي.. تقيأت الذي تناولته على أرضية الساحة.

بعد عدة أشهر من التدريب الأساسي الشاق، أخذت أتحصل على أمر خروج مع نهاية تمام يوم الخميس، أهرول نحو أول تاكسي ألمحه في عين زارة أهتف به في غبطة: فندق قصر ليبيا من فضلك.

سرعان ما أحجز غرفة فردية أشرع في حمام دافئ، أخرج لتناول وجبة العشاء دسمة، بعد طبيخ البطاطا أو القرعة، أعود إلى حجرتي بصحيفة أطالع فيها الصفحات الأدبية وأقرأ ما قصة: الظفر والناب للقاص حسن رحومة السوسي وما كتبه القاص سعيد عني في هذه الصحيفة عني قائلا:

(عندما يخرج كاتب من حي الحطية، معنى هذا إنه خرج من ثوب طبرق القديمة، خرج من بيت الأصالة، أي خرج من دم المجتمع ولحمه، مسلحا بتجارب إنسانية حقيقية، لأن بيوت الحطية المشيدة من الصفيح المترامية تهمس لبعضها البعض بأسرارها وأوجاعها وأفراحها ومعاناتها وعاداتها وتقاليدها وشكل نوافذها وطلاء أبوابها، وخشب أسطحها وأراجيح العناكب في زواياها معنى هذا أن عدسة وأفكار القاص التقطت بشغف صورا حقيقية أبيض وأسود صادقة لحياة الناس، صورت المرأة والرجل والشيخ والطفل والعجائز حكايات ما قبل النوم قامات الناس وظلالها خطوات المبكرين لنصب مصائدهم لرائحة الخبز التقطت حتى عواء الذئاب في وادي الجدارية..

إن قلم القاص في هذه المجموعة من بداية كتابتها وهو طالب في الإعدادية، يرصد صدى جدران الصفيح وهي تبتسم من الفرح وتئن من الحزن..

إن قلمه الحبر السائل يرصد الخطى لطابور الفتيات ذهابا وإيابا، للارتواء من صنبور المياه الوحيد في وسط حي الحطية وعيون الشباب المشاكسة..

إن هذا القلم اليافع يرصد في قصصه المجتمع والتاريخ والطبيعة والوطن والشمس والقمر والهواء والأمل والأحداث العابرة التي خطت بصماتها على جسد هذه المدينة الجميلة).

بعد ذلك أتناول قلمي.. أكتب على الورق رسالة لأخي:

أخي العزيز/ رمضان

تحية طيبة وبعد..

أكتب إليك رسالتي هذه من الغرفة ١٣ بفندق قصر ليبيا في قلب العاصمة مساء يوم الخميس،

تحياتي إليك وإلي أبي الطيب وأمي الحنون، هل ما تزال تربي الدجاج وترمي خبزا في التنور وتكنس أمام الكوخ كل صباح، وتنتظر عودتي على أحر من الجمر، كيف أحوال أبي الذي لا تفوته أي صلاة في مسجد الحطية، هل ما يزال يذهب لحراسة تلك الشركة التي تعين فيها حارسا بعد التقاعد، وكيف ذهب إلى الضمان وأوقف معاشه التقاعدي لأنه يعمل خفيرا؟

تحياتي وسلامي إلى أخي الصغير وأختي فاطمة..

لقد اشتقت إليكم، وإلى جلساتكم الحميمة الطيبة.

قل لأختي: لا تنس أن تنظف حجرتي الصغيرة ذات السرير الحديدي والطاولة والدولاب، والتلفاز الصغير والمكتبة الصغيرة، لا تنس أن تنفض الغبار عن كتبي..

سنة المستجد كانت مرهقة وشاقة خاصة الأشهر الأولى، كانت كلها هرولة ورياضة مع الفجر وتدريب ميداني، ثم أنهينا المشروع الخارجي في بئر الغنم، بعدها أصبح طلاب المتقدم يخففون علينا عقوباتهم بعد الظهيرة، انشغلوا عنا بامتحاناتهم وكونهم شهر وسيصبحون ضباطا، ومع منتصف أغسطس بدأنا في بروفات العرض العسكري على طريق الشط، حتى العرض في احتفالات أول سبتمبر، في هذه السنة لم أكتب شيئا، وكيف أكتب وأنا لم أشعر بالراحة والاستقرار؟ وكأنني سجين النهوض المبكر والإجهاد والتعب المضني والعقوبات والتعليم الإضافي حتى القراءة انقطعت عنها لم أكن أقرأ إلا عن السرية في الهجوم أو السرية في الدفاع، أو تركيب البندقية كلاشنكوف والقاذف آربي جي، والقانون الدولي، وقانون الإجراءات العسكرية، والأمن الحربي والتعبية، وبعض الصحف التي كنت أشتريها من المكتبات في نهاية الأسبوع، لأتصفح الصفحات الأدبية فيها ثم أتركها في غرفتي في الفندق أو في شقة صديقنا حميد الشويهدي، ومحمد العبعوب، ومحمد الجبالي، في حي بو الخير

وسط المدينة طرابلس، إنه ممنوع علينا إدخال الصحف والمجلات إلى الكلية.. هل يزوركم صديقي صلاح أو لا؟

ما أخبار جيراننا في الحطية؟ هل ما زالت على حالها لم تخطط شوارعها؟ ولم يرصف الشارع الوحيد بها الذي يقسمها..

لك تحياتي وسلامي للأهل والأصدقاء والجيران في الحطية وكل من يسأل ويتذكرنا..

وإلى لقاء في القريب في إجازة السنة ان شاء الله والسلام عليكم. أخوك.

في نهاية سنة المستجد تحصلنا على إجازة لمدة شهر واحد، فرحنا بها كثيرا، وعدنا إلى مدننا وأهلنا غير أنه سرعان ما انتهت تلك الإجازة، دخلت الطمأنينة قلبي عندما وجدت فتاتي ذات المعطف الأبيض تنتظرني.

عدنا من جديد لمواصلة الدراسة في الكلية، وقبل دخول الكلية بدقائق، كأنك تجرجرنا نحو معتقل رهيب، غير أنه ما أن نصبح داخل أسوار الكلية، حتى نتأقلم ونصبح نعيش حياة الطلبة العادية، وتعود إلينا الطمأنينة.

ما أن أصبحنا في الصف المتقدم حتى تغيرت معاملة ضباط وضباط صف الكلية لنا.. توزعنا في تخصصات عسكرية رئيسية جديدة: مدفعية – دبابات – مشاة، كذلك الذين معي من مدينتي منهم من أصبح في المدفعية، ومنهم من أصبح في الدبابات، ومنهم من أصبح في المشاة، لم نعد نهرول في أثناء خروجنا من القواطع أو الدخول مثل المستجد، بل نمشي الهوينى، صرنا نأخذ فترة راحة وقيلولة بعد الغداء، كانت تضمنا بعض اللقاءات، أثناء فترة الراحة تعرفت على طاهر الدويني قاص مصراتي، والشاعر عبد الله زاقوب من هون، كنت أعرفهما حتى قبل دخولي الكلية، من خلال ما ينشره كل منهما، على صفحات الأسبوع الثقافي.

نما إلى إدارة الكلية أنني كاتب وقاص، لست أدري من أخبرهم بذلك، قاموا باستدعائي وعهدوا إليّ بمكتبة الكلية بعد الدوام، اطلعت عليها، كانت تكتظ بالكتب العسكرية والكتب التاريخية..

بعد الإفطار في شهر رمضان، كانت تجمعنا إدارة الكلية بالأمر كل ليلة نحن طلاب المتقدم، في مسرح الكلية لمشاهدة نشرة الأخبار من التلفزيون الليبي، وبعد النشرة كان يعرض مشاهد الإعدام بالشنق للشباب، على أيدي أعضاء من مكتب الاتصال باللجان الثورية، في العديد من المدن الليبية وفي شهر رمضان المبارك، قيل: إن هؤلاء الشباب تآمروا لقلب نظام الحكم، والهجوم على باب العزيزية. مشاعر تقشعر لها الأبدان وتشمئز منها النفوس.

عرفنا فيما بعد أن هناك عملية كبيرة وقعت للهجوم على باب العزيزية، قام شباب من الخارج لكنها لم تنجح، وقبض على أعضائها، كما شاهدنا خلال ميدان طبرق وشاب وسيم في زهرة شبابه ، أجعد الشعر في العقد الثاني من عمره، يدعى المهدي لياس درس الابتدائية والإعدادية بمدرسة المجد، ثم تحصل على بعثة دراسية على حساب شركة البريد في اليونان لمدة سنتين، جيء به مقيدا ويديه خلف ظهره إلى ميدان المدينة طبرق، قامت فتاة ترتدي الزي العسكري بوضع حبل المشنفة في رقبته، وسط حضور رجال الأمن ووأعضاء اللجنة الثورية، سحب كرسي الإعدام من تحت قدميه، عرفنا فيما بعد أنّه كان قد انضم إلى الجبهة الوطنية للإنقاذ، وعثر على اسمه ضمن قائمة من الأسماء، في جيب أحدهم بعد استشهاده في عملية اقتحام باب العزيزية، كما شاهدنا مشاهد الإعدام في المدينة الرياضية بنغازي لشاب يدعى الصادق الشويهدي. يا لها من مشاهد مؤثرة.

وفي ليلة أخرى من ليالي شهر رمضان الكريم، شاهدنا صرير مجنزرات ثقيلة، وجرافات عسكرية ووجوها غريبة، من رجال الجيش والشرطة، في واحة الجغبوب بينما الزاوية تتساقط والضريح في الواحة تطالهما آلة التدمير والتفجير، ماذا يحدث؟ كيف يهدمون هذا المعلم الحضاري، وهذا المسجد الكبير، كيف ينبشون قبور الأضرحة.. يخرجون جثامين الموتى من مسجد الجغبوب، ويرحلون بها نحو المجهول، تذكرت تلك الواحة الجميلة الهادئة ذات النخيل الشامخ.. وتلك الأشهر الجميلة التي أمضيتها بها.

حفتر وأنا في طبرق

هذا الأمر لم أكن أتوقعه ولم يكن في الحسبان، أن يحدث هذا لي، أن أحلق ذقني كل صباح، وأرتدي القيافة العسكرية، وأغدو إلى ثكنة الصقر الوحيد..

عدتُ من طرابلس ببكالوريوس علوم عسكرية، ورسالة مراسل لمجلة الشعب المسلح، من مدير التحرير بالمجلة، بقيت الرسالة في جيبي عدة أسابيع، لماذا لا أسلمها لآمر المنطقة العسكرية طبرق؟ ذهبت إلى هناك، صعدت الدور الثاني بالمنطقة العسكرية، بقيافتي العسكرية ونجمتي اليتيمة على كتفي، اتجهت نحو اليمين، دخلت على السكرتيرة هي ضابط برتبة ملازم أول، جميلة ورشيقة القوام، ترتدي البزة الخضراء، بشرتها بيضاء، شعرها قصير، مددت لها بالرسالة، أخذتها مني طالبة الانتظار قليلا، فتحت الباب دخلت عليه هي بالرسالة، سألت أحد ضباط الصف عن الآمر.. أجابني: -إنه المقدم خليفة حفتر.

كنت أتمنى أن يقبل الرسالة وينتهي الأمر عند هذا الحد، وأعود لعملي في الثكنة في أمن وسلام، غير أن السكرتيرة خرجت من عنده ثم أذنت لي بالدخول على الآمر، دخلت عليه أعطيته الواجب –التحية- كان يجلس هناك على كرسيه الهزاز، ببدلة التشريفات التي تغطيها الأوسمة والأنواط، وغطاء الرأس على الطاولة المستطيلة، يبدو مهيبا له شخصية قوية، وشعره حالك السواد وشاربه الهلالي بادرني: أنت الضابط الكاتب؟

- نعم سيدي.

- تحضر إليّ هنا غدا، لدي مهمة أخرى سوف أكلفك بها ما دمت كاتبا.

أعطيته التحية وانصرفت، ما أن خرجت من عنده حتى كانت العيون الرصاصية تحدق في.. ضباط برتب مختلفة، يجلسون في صالة الانتظار.

لم أنم في تلك الليلة ولم يغمض لي فيها جفن، ما هذه المهمة التي سيكلفني بها؟ هل هي إصدار صحيفة للمنطقة العسكرية أو ماذا؟ لنترك معرفة هذه المهمة للغد.

مع الصباح حلقت وجهي لمعت حذائي جيدا.. ارتديت بزتي العسكرية، سرت على قدمي مع الصباح من كوخي في الحطية حتى الطريق الرئيسي، استوقفت تاكسي حملني إلى المنطقة العسكرية بالمنارة.. صعدت للدور الثاني كالعادة اتجهت نحو اليمين.. دخلت على السكرتيرة حييتها نهضت فتحت هي الباب دخلت عليه ثم خرجت من عنده، دعتني للدخول.. أعطيته الواجب وأنا واقف على بعد خطوات، رن هو الجرس أطلت السكرتيرة مسرعة، طلب منها استدعاء أحد الضباط بالاسم، سرعان ما حضر، بعد أن أعطاه الضابط التحية، هتف به الآمر:

-هذا الضابط الكاتب سوف نكلفه بإعداد مذكرة عن حرب تشاد التي طلبها منا القائد العام.. خصص له مكتب التوجيه.

ثم التفت إليّ قائلا:- النقيب صالح هذا سوف يسلمك المكتب، ويساعدك بالمعلومات التي تخص حرب تشاد.. وأنت عليك صياغتها.

تبعت بخطاي النقيب صالح عبر ممر طويل في اتجاه الشمال، كان آخر مكتب جهة اليسار، يقابله مكتب آمر المدفعية فتحه النقيب وأعطاني المفتاح قائلا:

- هذا مكتبك.

دخلت المكتب وجلست على الكرسي الهزاز، فتحت الدولاب، تصفحت الملفات التي بداخله كلها كانت تحوي طلبيات وقود وزيت سيارات.

بعد يومين تواجدت في المكتب بالمنطقة العسكرية، بعد دقائق حضر إليّ النقيب صالح.. أعطيته التحية.. رد عليها ودعاني للجلوس قلت له: إنني لم أجد ما يفيد المهمة المكلف بها في هذه الملفات.

بادرني قائلا: فتش أنت عن مرجع أو اثنين عن دولة تشاد، وأنا سوف أدون لك المعارك التي خضناها في تشاد، وكيف دخلنا ابشه وفايا لارجو وانجامينا وغيرها، وانت عليك صياغتها بأسلوبك.

عصر ذلك اليوم تجولت في مكتبات المدينة، أفتش عن ما كتب عن تشاد، لم أجد إلا مرجعا واحدا هو بعنوان: العلاقات الليبية التشادية للكاتب سعيد الحنديري، فرحت به كثيرا وبعد قراءتي له قراءة متأنية، كتبت نبذة عن تشاد من حيث الموقع والمساحة والسكان، وكيف اشترك العديد من التشاديين في الجهاد الليبي ضد الغزو الإيطالي.

أصبحت ألتقي بالنقيب صالح في مكتب المنطقة عدة مرات في الأسبوع، أسأله عن تلك المعارك، وأستلم منه ما كتبه بخط يده عنها في منزله، وبعد أن أصبحت لدي نبذة وافية عن تلك المعارك، كتبت عن الصراع بين كوكني وداي وحبري على السلطة في تشاد، ثم مساعدة القوات الليبية تشاد لمحاربة الاستعمار الفرنسي، ومساندة الرئيس التشادي حبري، وأهم المعارك في فايا لارجو وأبشه وانجامينا، بعد عدة أيام كتبت كل ذلك بخط واضح وحضرت للمنطقة العسكرية، استأذنت السكرتيرة الضابطة، دخلت على المقدم حفتر.. تلاشت الرهبة في الدخول عليه، أديت الواجب، تقدمت نحوه خطوات وفي يدي صفحات من المذكرة مددتها له تصفحها بسرعة ثم بادرني قائلا: إنها ما زالت تحتاج إلى إضافة.

ثم التفت إلى قائلا مغيرا دفّة الحديث:- أين تسكن أنت؟

في دهشة واستغراب أجبته:- أسكن في الحطية.

- في منزل؟
- في كوخ من الصفيح ياسيدي مع أسرتي.

بادرني قائلا: - اكتب لي طلبا وأعطه للسكرتيرة.. سوف نوفرلك مسكنا صحيا لائقا.

بعد أن خرجت من عنده سرعان ما كتبت الطلب، قدمته للسكرتيرة التي دخلت به عليه مدت لي الطلب قائلة:- اذهب به إلى رئيس لجنة الاسكان العسكري وسلمه له.

لم أجده في ذلك اليوم، حضرت اليه في اليوم التالي، استلم مني الطلب في لا مبالاة قائلا:

-عند ما تجد مسكنا في حي الضباط أو مساكن البحرية أبلغني وسوف نخصصه لك.

سرتُ لحي الضباط، أبحث وأفتش وأسأل عن أي مسكن شاغر، كانت الإجابة من الأشخاص الذين أقابلهم: أي منزل لا يدعه صاحبه ولا ينتقل منه، دون مقابل.

عدت من جديد للمنطقة وقابلت النقيب صالح، وطلبت منه إحصائية وافية عن تلك معارك تشاد، وقرأت عليه ما كتبته، أبدى استحسانه، وطلب مني عرضها على الآمر، ووعدني بإحضار تلك الإحصائية.

وبالفعل أحضرها لي في اليوم الثاني، أعدت صياغة الصفحات التي كتبتها من جديد، ودخلت على آمر المنطقة فاطلع عليها وفي الختام سألني قائلا:

- ماذا حدث في المسكن؟

قلت له: إنني قدمت الطلب الذي وقعت لي عليه، ولكن النقيب إبراهيم قال لي: لا توجد مساكن شاغرة.

ابتسم المقدم خليفة قائلا:- لا تحمل هما سوف نخصص لك مسكنا لائقا.

كنت أتردد على مكتبي في المنطقة العسكرية يومين في الأسبوع، وباقي أيام الأسبوع أتواجد في ثكنة الصقر الوحيد، وبعد أسبوع فوجئت بالنقيب إبراهيم، يطل على في الثكنة ثم يهتف بي مبتسما بعد التحية..

- هل عندك خطاط سماواي اللون؟
- سوف أحضره لك من الإدارة.
- تحصلت على الخطاط.. لحقت به عند الباب الرئيسي للثكنة، دعاني لركوب السيارة معه، ركبت إلى جواره في سيارته المازدا ٣٢٣ البنية اللون، وانطلقنا نحو الغرب على الطريق الرئيسي، كان إلى جانبه في السيارة مجموعة كبيرة من المفاتيح، انعطف جهة اليمين بسيارته نحو حي الفرجان، توقفت بنا السيارة أمام العمارات الكوبية الحديثة، التقط مجموعة المفاتيح في يده وترجلنا من السيارة اتجهنا نحو العمارة الأولى، تحسس المفاتيح التي في يده، وبدأ يفتح باب الشقة الأولى ثم قال لي:

-اكتب عليها اسمك كاملا.

وسلمني مفاتيحها.. عندها أحسست بالسعادة تغمرني، ثم استلمت منه الكشف الذي معه، وكتبت بقية الأسماء على باقي أبواب الشقق الأخرى، ترجّلت من السيارة عند الظهيرة عند منعطف الحطية، عدت مسرورًا مغتبطا إلى الكوخ ظهيرة ذلك اليوم، والمفاتيح في يدي فاجأت أبي وأمي وإخوتي،

والغبطة تبدو علي أبرزت لهم مفاتيح الشقة مبتسما قائلا:- لقد تحصلت على شقة من حفتر.

وبعد الغداء حملتهم في زيارة لتلك الشقة الحديثة، غمرت الفرحة قلوبهم، شقة واسعة بها ثلاث حجرات وصالة، أرضيتها بالبلاط، والمياه متوفرة في حمامها والمطبخ، بعد أيام حملنا أثاثنا المتواضع إليها، وفرشناها بقطع من فرش مصنع بطاطين المرج، وودعنا الكوخ والحطية والجيران وليالي البؤس والفقر والشتاء القارس وهطول الأمطار.

نشطت في كتابة المذكرة من جديد، تواجدت بالمنطقة العسكرية، دخلت على المقدم خليفة أعطيته التحية، كان يجلس عنده رجل أنيق قصير القامة، يرتدي بدلة رصاصية، أعرفه أنّه يقطن في سوق العجاج ويدعى الطيب عريقيب.

- آه تحصلت على الشقة؟
- نعم سيدي شكرا جزيلا لك.
- إذن عليك أن تبادر بالزواج وسوف أساعدك.

غير أنه ذات يوم فوجئت أن المقدم خليفة والنقيب صالح، ومن معهم من القوات قد تم تكليفهم بالتوجه من جديد إلى تشاد، وجاء آمر جديد للمنطقة العسكرية طبرق، توقفت عن كتابة تلك المذكرة.. سلمت مفتاح المكتب للمساعد.. ولم أعد إلى المنطقة العسكرية من يومها قط، ثم علمت فيما بعد أنه تم أسر المقدم خليفة، ومن معه في الأراضي التشادية أثناء معارك ١٩٨٧م وتنكر لهم نظام القذافي، ووصلوا إلى زائير ثم إلى كينيا بعدها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وانخرطوا في الحياة المدنية، وكل مجموعة منهم استقرت في ولاية، من يريد أن يواصل تعليمه يواصل، ومن يريد ان يعمل في أي عمل مدني.

الضابط يصدر صحيفة

إثر اقتراح مني لعميد بلدية طبرق الجديد عمر رشوان، وكان معي صديقي صلاح عويضة، بإصدار صحيفة أسبوعية شاملة؛ استجاب هو لطلبي ، ودعاني لاقتراح هيئة تحرير لها، حتى يصدر قراره ، وبعد أسابيع صدر العدد الأول من الصحيفة، الذي صادف يوم زفافي على تلك الفتاة ذات المعطف الأبيض، التي رفضت كل من تقدم لخطبتها، وانتظرتني حتى تخرجت من الكلية لعسكرية، أصبحت هذه الصحيفة هي جزءا من حياتي.. كنت أنا رئيس التحرير والمدير المالي والمصحح والمراجع ومدير الشؤون الإدارية بها ومنسق تحريرها.

صدر قرار من عميد البلدية بأول أسرة التحرير وهم: حسن رحومة السوسي ، سعيد خيرالله صالح ،عبد الله عياد الشريف ، عبد العليم الصاوي ، يونس أحمد بشير.

ثم تغيرت أسرة التحرير بعد سنوات، كلفت الكاتب المؤرخ عبد السلام شلوف مشرفا لها في بنغازي، ازدهرت الصحيفة وأصبحت تحمل أخبار المدينة وهمومها، على صفحاتها، برز كتاب وصحفيون جدد، تطالع على صفحاتها زوايا ثابتة: فتات من خراب الذاكرة - وبتوقيعي – وبيت القصيد – ومجرد رأي - ووجه من البطنان، أخذت تهتم بقضايا المهمشين في العشوائيات في أحياء الحطية والحي الروسي وداخل معهد النفط، بل وأجرت لقاء مع ذلك المواطن الذي وجدناه يقطن بعائلته داخل منارة إرشاد السفن، في السيمافرو قال لنا في حديثه معنا إنه يحرج من زيارة الأقارب والأصدقاء لأنها حجرة واحدة فقط وممر صغير وحمام.

استقطبت البطنان أسماء كثيرة تعرفت عليها من خلال الصحيفة: سعيد خيرالله والسوسي وعبد الله عياد ومحمد سعيد وعوض الشاعري والرواف وبوسلامة وزيدان وبوحفحوف والدمنهوري وصلاح فؤاد وعبد القادر مطول وعبد السلام بعيو وسالمة العمامي وونيس خليل وناصر العوكلي وغيرهم.

فتحت الصحيفة لهم صفحاتها، منهم من استمر في الكتابة لفترة ما ثم توقف، ومنهم من تواصل معها وتحولت الكتابة لديه من هواية إلى احتراف، بل وهناك من توطدت علاقتي وصداقتي به حتى آخذه يسافر معي إلى المطابع ويشارك في كيفية تجهيز العدد هناك في بنغازي والسهر عليه حتى طباعته في منتصف الليل.

وكذلك المشاركة معي في الندوات والأمسيات القصصية والشعرية سواء في طبرق أم خارجها.

أصبحت الصحيفة التي تطبع منها عدة آلاف، لها قراء وعليها إقبال في مكتبات المدينة.. واحتضنت العديد من المواهب على الرغم من معاناة السفر إلى بنغازي، والتواجد في المطابع والسهر عليها ليلة كاملة، في الجمع اليدوي بالرصاص إلى التصحيح والمراجعة، واستلامها في ساعة متأخرة من الليل، لم يكن في وقتها هناك انترنت أو جمع مرئي، كل ذلك كان يتم في مطبعة بنغازي..

وبعد مضي أشهر على صدور تلك الصحيفة المحلية، استدعيت من قبل آمر منطقة طبرق العسكرية في تلك الفترة، دخلت عليه مكتبه، وبعد أداء الواجب سألني قائلا: أنت ضابط أم مدني؟

- ضابط طبعا.
- جاءتني معلومة أنك تصدرت جريدة.
- نعم سيدي معلومة صحيحة، أنا رئيس تحرير لها وقد صدرت منها عدة أعداد.

- هل تحصلت على إذن من الاستخبارات العسكرية لهذه الصحيفة؟
- لا يا سيدي هذه صحيفة محلية ليست لها علاقة بالاستخبارات.
- أنت ضابط جيش والتعليمات تقول: إنه حتى الكتابة عليك ممنوعة إلا بعد إذن من سيدي القائد الأعلى، فما بالك برئيس تحرير صحيفة.

ثم هددني بإيقاف الترقية والحبس، إن لم تتوقف هذه الصحيفة عن الصدور، وأمرني بالانصراف.

لكنني لم أهتم به ولم أمتثل لأمره، وبعد أسابيع علمت أنه انتقل إلى منطقة عسكرية أخرى، ووقاني الله شره.

وبعدما أصبحت الصحيفة تصدر أسبوعيا، في السنوات الأخيرة، كلفت الشاعر محمد عبد الله المحجوب المقيم في بنغازي بالإشراف عليها هناك في المطبعة، أرسل له مادة العدد في سيارة الأجرة، يسلمها لرقابة المطبوعات، ثم يتجه بالمواد للمطبعة عند الظهيرة، لتبدأ هناك الطباعة والجمع المرئي بالرصاص، والمراجعة والتصحيح حتى تخرج الصحيفة من المطبعة مع منتصف الليل ويرسلها إليّ في سيارة الأجرة القاصدة طبرق مع الصباح الباكر لليوم التالي.. وصلني العدد مع الظهيرة ، حملته مسرورا للبيت، لتصفحه ومراجعة قبل التوزيع، فوجئت على إحدى صفحات العدد، أن أحد الكاتب أرسل صورته صحبة مقالة له، فوجئت بالصورة لم تنزل مع المقالة ، بل كانت تتصدر صفحة الوفيات، ونعي لقدامى أحد الكشافين يتشابه اسمه مع صاحب المقال، فحملت الصحيفة أولا لكاتب المقال، وابتسمت في وجهه، واعتذرت له متأسفا، قائلا: - - معذرة لقد قتلناك وأنت على قيد الحياة.

ومددت له بالصحيفة، والصفحة التي بها نعيه وصورته، فالرجل تقبلها بابتسامة فقد كان أستاذي ومدير مدرسة الضاحية وقال:- المهم ألا تصل نسخ

من صحيفتكم هذه لمدينة القبة لأن بناتي وأقاربي هناك وسيأتون مسرعين منزعجين لو وصلتهم الصحيفة..

هاتفت الأستاذ المحجوب عن هذا الخطأ، وضرورة الاعتذار للأستاذ الفاضل ، في العدد القادم من الصحيفة، وأن ينتبه جيدا للأخطاء، ويدقق في المراجعة والتصحيح.

ولكن دليل على أننا شعب لا يقرأ، ولا يهتم بقراءة الأخبار السياسية، وصلني العدد الجديد، وكان فيه خطأ جسيما يؤدي الي حبل المشنقة، وعندما تصفحت الصحيفة كالعادة قبل توزيعها، وعلى الصفحة الأولى وكان الخبر الأول ارتعشت أصابعي، عندما قرأته: (برقية للأخ قائدة الثورة) لم يفطن لها أحد، على الرغم من أن الصحيفة، وزعت كمية منها على شركة الخليج، حتى ذلك المقدم في الأمن الداخلي، المكلف باستلام كل ليلة عشرين نسخة من الصحيفة بعد الطبع، لم يفطن لها، أتذكر في إحدى الصحف وقع خطأ مطبعي في الصفحة الأولى وبدلا من أن يكتب: العقيد، كتبت: الفقيد فصدرت الصحيفة وحكم بالسجن على رئيس تحريرها ومصادرة الصحيفة وايقافها عن الصدور.

وبدلا من توزيعها حملت الصحيفة إلى منزلي، وأخذت القلم الجاف الأسود واستغرقت ساعات طويلة في تصحيح الخطأ المطبعي، كنت أضع شرطة مكان التاء المربوطة، لتصبح قائد الثورة وأعصابي متوترقلقة، أجلس بجوار الهاتف الأرضي، أتوقع في أي لحظة أن يطلبني الأمن الداخلي أو أي جهة أمنية أخرى.

وبعد تلك الخطأ قررت السفربنفسي للمطابع والاشراف على الصحيفة، أتحمل مشاق السفر أسبوعيا، وأراجعها هناك في المطابع بدقة مع المصحح..

أتذكر عندما كنت ذات يوم في مكتب الصحيفة، بالدور الثاني في مقر الإعلام، أطل أمين الاعلام، وكان وقتها الأستاذ حمد بوسميحة، وبيده قصاصة ورقة صغيرة، مدها لي قائلا: اقرأ هذه البرقية..

حدقت فيها جيدا وقرأت: الأخ أمين إعلام البطنان.. الأخ رئيس تحرير صحيفة البطنان، يطب حضوركما إلى مكتب الاتصال باللجان الثورية العسكرية للأهمية عاجل وسريع.

التفت إليه قائلا: - وما الحل في رأيك؟

قال لي:- سافر أنت إليهم غدا واستوضح الأمر، أما أنا لدي ظرف اجتماعي.

في اليوم التالي كنت في المطار أصعد إلى الطائرة القاصدة طرابلس، هبطت بي الطائرة في مطار طرابلس العالمي أخذت تاكسي إلى مكتب الاتصال، كان مقره وقتها على شاطئ البحر بالقرب من مستشفى السكر أنزلني التاكسي بعد أن نقدته أجرته كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحا عند الباب الخارجي، مددت للاستعلامات بالبرقية بعد أن تسلموا مني هويتي.

رد علي رجل الاستعلامات بعد دقائق:- يا أستاذ اللي طالبتك هي شعبة اللجان الثورية العسكرية، هذي مقرها في طريق المطار بجوار الشرطة العسكرية..

استدرت خلف ومشيت خطوات حتى لمحت تاكسي ركبت إلى جواره وذكرت له العنوان بادرني عند الوصول قائلا: عشرة دينار.

توقف بي أمام الباب الرئيسي، ترجلت منه بعد أن نقدته ورقة العشرة جنيهات، مددت بالبرقية لرجل الاستعلامات، أشار إلى الدخول إلى المكتب هم عسكريون لكنهم يرتدون ملابس مدنية وقال لي: اذهب هناك مكتب المقدم محمد لطوش..

انتظرت دقائق أمام المكتب ثم أدخلني موظف عليه وأوصد الباب، بعد أن دخلت سلمت عليه وجلست.. التفت إليّ بغطرسة وكبرياء: أنت رئيس تحرير البطنان؟

أجبته: نعم.

- أين أمين الإعلام.. لماذا لم يحضر؟

- عنده ظروف اجتماعية.

بازدراء قال لي: أنتم تكتبون وخلاص.

بادرته متسائلا: كيف؟

- قمتم بتغطية إعلامية لحفل للشرطة في طبرق للعائدين من حرب تشاد ونسيتم الشباب الثوري الذي كان في أوزو.

- يا سيدي هذا احتفال دعا إليه أمين العدل للعائدين من أوزو من الشرطة، ونحن كصحيفة بلدية قمنا بالتغطية الإعلامية لهذا الحفل.

- نحن لسنا ضدكم وهذه الصحيفة (ورفعها بيده وأشار إلى الصفحة ثم التقرير المتضمن معها) وهذا واحد من عندكم اللي كاتب فيكم تقرير، ومرة أخرى يجب أن تفطنوا لمثل هذه الأمور.

وهكذا انتهى هذا الأمر بكل البساطة، ثم عدت في نفس اليوم عن طريق مطار طرابلس الي مطار بنينة .

ثم حادثة أخرى ذات صباح هاتفني مدير مكتب أمين الإعلام صباحا قائلا:- أستاذ أنت عندك مشكلة مع أحد الكتاب في طبرق أم ماذا؟

بادرته مجيبا:- لا أبدًا.. الكل أصحاب وأحباب والنشر متاح لهم على صفحات البطنان.

- لا يا أستاذ فيه واحد كاتب فيكم تقرير من صفحتين.. عند الأستاذ أمين اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام وأنا حفظته.

- لم أتذكر أن لدي مشكلة مع أحد.

ثم بادرني: هل لديك فاكس أرسل لك صورة منه..

- نعم وأعطيته رقم الفاكس، وأنا أحاول أن أتذكر أن لدي خلافًا مع أحد الكتاب من مدينتي، لكن دون جدوى، وبعد أقل ساعة كانت أمامي صورة من التقرير، في البداية كان يخاطب فيها أمين اللجنة الشعبية العامة للإعلام، بلغة رصينة ويمدحه فيها: ((ونحن نشهد لأمانتكم الموقرة بالمجهودات المترامية الأطراف المبذولة، لتكثيف العطاء الثقافي والأدبي والفكري والإعلام به محليا وعالميا، كنا نأمل أن تكون كل المؤسسات في مستوى هذا المد)).

وفي فقرة أخرى ينوه إلى صحيفة البطنان فيقول: (ولكن أيها الأخ الأمين هناك من ليست المرحلة مرحلته، ومن ليس بقادر على مواكبة الحركة الثقافية الجادة الفاعلة، وأعني هنا من يقومون على ادارة صحيفة البطنان المحلية الذين تغير الكل وهم باقون).

وفي فقرة أخرى يستدرك قائلا: (لكن المعضلة الأخرى التي قابلت أقلامهم كمنت في أن ذات الطاقم الذي أشرف على الصحيفة، ذاته الذي يدير موقع الصياد في البطنان).

بحثت عن اسم كاتبه وجدته مذيلا في خاتمة التقرير، تذكرته لم تكن لي معه عداوة أو بيني وبينه خصومة، أو خلاف ، لست أدري ما السبب إلى هذا الهجوم؟ وأنا أتذكر أنني لم أخطئ في حقه أو في حق غيره أو ربما لديه رؤية للتجديد في الصحيفة، أو يظن الصحيفة تدر دخلا ماليا ؟ إنها مهنة المعاناة والمتاعب، والجري وراء الخبر والصورة ليس إلا.

أخذتني الصحافة والكتابة وعرف اسمي في الصحافة الليبية، ولكنها جنت علي الصحافة، أصبح كل همي هو مطاردة وملاحقة الخبر الصحفي،

وحضور اجتماعات البلدية، واستقطاب الكتاب واجراء اللقاءات الصحفية، وجلب المادة الصحفية ومراجعتها وتصحيحها والسفر بها إلى المطابع في بنغازي وطباعتها وتصحيحها، والإشراف على الجمع اليدوي، والسهر عليها في المطبعة حتى الهزيع الخير من الليل، ثم العودة بنسخ الصحيفة الثلاثة الآف في سيارة أجرة إلى مدينتي، ليتم توزيعها على مكتبات المدينة.. معاناة صعبة في مهنة المتاعب تلك.

وتوسعت دائرة الصحفيين والكتاب الذين استمروا معي، وصدر قرار بأنشاء فرع للصحافة بمدينة طبرق، حيث انتسبوا للمكتب والكتابة على صفحات الصحف الليبية التي صدرت عن مؤسسة الصحافة مثل الشمس والجماهيرية والفجر الجديد وكل الفنون وغيرها. كما كلفت في تلك الفترة بموقع الصياد الثقافي الالكتروني الشامل.

كان والدي قد أقعده المرض، وأصبح طريح الفراش، مجرد هيكل عظمي، وعينين غائبتين ضيقتين، صدره يعلو ويهبط، قد مات العالم من حوله، أجلس عند رأسه مع أخويّ وبعض الأقارب والجيران، كانت نظراتهم تبعث على الرثاء.

التفت إليّ الحاج خليل قائلا:

أبوك هذا من أطيب الناس الذين عرفتهم في حياتي، عمره لم يذكر أحدا بسوء في غيابه.

أردف مؤذن مسجد الحطية: إنه لم يتأخر عن الصلاة في المسجد حتى صلاة الفجر كان يحضرها إلى أن مرض.

أضاف جارنا حمزة: والدك أعرفه رجل عصامي لا يأكل إلا من عمل يده.. أذكر أنه بعد أن عمل خفيرا ذهب إلى الضمان وأوقف المعاش التقاعدي..

في تلك اللحظات لمحت أمي بردائها الباهت تتساءل في حيرة وقلق: كيف هو الآن؟

اقتربت من أبي المسجّى على السرير، تحسست أطرافه تبدو باردة كالثلج، بينما صدره يعلو ويهبط أجبتها:

يبدو على حاله كما هو يلطف الله به..

ظلت واقفة في ارتباك ظاهر، بينما اقترب من والدي الحاج رزق، وأمسك بقطنة مبللة شرع يمسح بها على شفتيه اليابستين، اصطكت أسنان أبي ببعضهما في حشرجة، خاطبه الحاج رزق:

تشهد يا رجل تشهد..

بصوت واهن أخذ أبي يردد: أشهد.. أن....لا إله إلا الله

توقف أبي نهائيا عن الحركة.. أسبل جفنيه لفظ أنفاسه الأخيرة.

هتف الحاج رزق في نبرة من الحزن وردد معه الحاضرون: إنا لله وإنا إليه راجعون.

فجأة أطلقت أمي صرخة مدوية، على إثرها أقبلت النسوة إليها وشرعن في الصراخ والعويل أمام المنزل..

سحبت الغطاء على وجه أبي الباسم، وقد اغرورقت عيناي بالدموع أحسست بغصة في حلقي وحزن، وأسى وبكيت على أبي لأول مرة في حياتي.

وتبقى القصة القصيرة هي الأقرب إلى شخصيتي وأفكاري، كتبت عشرات القصص.. كنت أهتم فيها كثيرا بالحدث، لا أجبر نفسي على الكتابة دائما، أكتب عندما يحلو لي ذلك، عندما تكون حالتي مستقرة أو لدي أوقات فراغ، كما أنّه ليس لدي طقوس معينة في الكتابة، سوى أنني عندما أتأثر بحدث ما سمعته من صديق، أو تجربة عشتها، أو خبر قرأته أحوله إلى قصة قصيرة على الورق.

أكتب قصصي في مكتبتي بالمنزل، أو في مكان هادئ بعيدا عن الضوضاء، لا أحب الكتابة في المقاهي أو في الأماكن العامة، أميل للهدوء والسكينة، لا أحبذ الحكي عن نفسي ككاتب قصة، أترك للغير أن يتحدث عني.

كتابة القصة القصيرة فنٌ صعب، يحتاج إلى قراءة متأنية متعمّقة، وعندما ولدت لم أفتح عيني لأجد مكتبة جدي، أو أن أبي كان يجيد القراءة والكتابة، أو أن أمي كانت امرأة متعلمة، كل ذلك لم يتوفر لي.

لكن دراستي الأولية في مدرسة طبرق القرآنية، عن طريق اللوح وقلم القصبة ودواة الصوف، وتجويد القرآن الكريم كل ذلك أفادني .

وبدايتي لم تكن بكتابة القصة القصيرة، بل كانت بكتابة قصيدة النثر، حيث كتبت قصائد مراهقة ساذَجة عن الحب والعشق، كتبتها في صباي وأرسلتها لمجلات الحوادث اللبنانية وبيروت المساء والمجاهد الجزائرية، وكنت أفرح كثيرا وأصاب بالغرور، عندما أجدها قد نشرت في بريد القراء وأقتني نسخا من تلك الأعداد، بل كنت أشتريها من مكتبة علي ليدي في شارع زهير بن قيس الغنية وقتها بالكتب والمجلات والصحف.

بعد مدة جمعت تلك التي أزعم أنها قصائد نثرية في كراسة صغيرة بعنوان: قصائدي إليها.. لكنها لم تكن قصائد حسب رأي شاعر مدينتي.. مزقتها

ولجأت إلى كتابة لون آخر من الأدب برز عندي في آخر المرحلة الإعدادية هو القصة القصيرة وكان الفضل فيه لأستاذ اللغة العربية المصري السيد عيسى في مدرسة الضاحية الإعدادية.

الذي كان يكلفنا في حصص الإنشاء بكتابة قصص عن التضحية والفداء، وكان يلتقط كراستي ويعجب بما كتبته ويأخذها معه ويقرأ ما كتبته على طلاب الفصول الأخرى ويشجعني على الاشتراك في مسابقة النشاط المدرسي في القصة، على مستوى محافظة درنة المسابقة، كانت تقام بمدرسة الزهراء بمدينة درنة، وكان يرافقني في تلك المسابقة الأستاذ موجه اللغة العربية محمد أدم الخرشوفي.

على الرغم من أن أول مجموعة قصصية مقبولة، قد صدرت لي عن شركة النشر والتوزيع والإعلان الليبية كانت سنة ١٩٧٩ م.

كتبت الكثير من القصص القصيرة ومزقت العديد منها.. لم أقتنع بها..

وصدرت لي بعد مقبولة مجموعات قصصية أخرى وهي وتجسد الحلم ثم مجموعة قصصية ثالثة هي والرجل والنورس، ومجموعة رابعة الطيار البرونزي وغيرها.

وإذا تصفحنا المجموعة القصصية الأولى مقبولة؛ نجد كل قصة لها جانب خفي في حياتي جعلني أكتبها فأنا لا أكتب باستمرار، عندما أشعر أنّني بحاجة للكتابة أكتب وأن هناك قصة تلح علي لأكتبها.

على سبيل المثال مقبولة، كنت أعرفها شخصيا تلك الفتاة وأحببتها في بداية شبابي، من طرف واحد، غير أنني العبد لله الفقير الذي ما يزال في معهد المعلمين يومها، ويسكن مع أسرته في كوخ من الصفيح، ماذا باستطاعته أن يفعل لفتاة جميلة ناضجة وكيف يتقدم لأهلها؟ سرعان ما اختطفها رجل ثري مني على امرأة لديها أبناء وبنات منها، فتخيلت في القصة أنها ترفضه ولم تجد

وسيلة لهذا الرفض سوى الانتحار والرمي بنفسها في البحر، وإن كانت هي في الواقع لم تفعل ذلك، رضيت بقدرها وأنجبت منه أولاد وبنات واستمرت حياتها معه..

كتبت هذه القصة واشتركت بها في مسابقة وزارة الشباب والرياضة، حيث فازت بالترتيب الأول على مستوى الوزارة ولأول مرة أعرف العاصمة طرابلس؛ حيث أرسلتني مديرية الشباب في درنة بتذكرة سفر ذهابا وإيابا، إلى طرابلس أول مرة أركب الطائرة لاستلام الجائزة وشهادة التقدير والإقامة على حساب وزارة الشباب في جمعية بيوت الشباب، ولأول مرة أضع بين يدي مبلغا كبيرا من المال، في ذلك الوقت هو خمسمائة دينار قيمة الجائزة عدت به مسرورا مغتبطا لأسلم هذا المبلغ للوالد، حيث بنى لنا به دارا وحماما بالبلوك، وقمنا بإزالة براكة الصفيح تلك.

هذه القصة التي سميت باسمها أول مجموعة قصصية لي، ولكل قصة في هذه المجموعة علاقة حميمة معي وإلحاح يلح علي حتى كتابتها.

كتب عنها النقاد بعد صدورها في الصحف والمجلات مقالات ودراسات في الكتب بين مادح وقادح.

ثم قصة الضحية في هذه المجموعة، وهي لمعاقٍ من الحطية، نبذه المجتمع حتى أقرب الناس اليه، شقيقه كان يعشق فتاة من الحطية، وما أن صارحها بعشقه هو حتى رفضته في سخرية واستهزاء، كنت أسير يومها ومعي صديقي محمود المقرحي للمذاكرة اقتربنا من كوخه، شاهدناه يتدلى بين السقف والأرض، وقد لفظ أنفاسه، عبد الرحمن الربيعي وحولها تمثيلية سهرة للتلفزة التونسية.

ثم قصة البرقية أول مرة كتبتها كانت بعنوان خطيئة أب، ثم غيرتها إلى غلطة أب، ثم استقر رأيي على أن تكون بعنوان البرقية.. وهي تعالج مشكلة الزواج بين الشاب والفتاة بدون اتفاق وتعارف بينهما.

قصص مقبولة لشخصيات وأشخاص لم تخرج من الحطية، وتجارب عشتها أو شاهدتها..

لي صديق كاتب يسكن إحدى الواحات كان يكتب وينشر باستمرار في الصحف الليبية مقالاته ثم فجأة توقف عن الكتابة، عندما التقينا وجدته دفعني الفضول إلى أن أسأله عن السبب فبادرني بواقعة أثّرت في حياته ومن يومها لم يعد يكتب ولم تعد له ثقة في النساء.

حتى إنه قال لي: وإذا وجدت من يكتب قصتي هذه فسوف أعاود الكتابة.

ومر على ذلك اللقاء عدة أسابيع فكتبت قصته وجعلت عنوانها الرجل والنورس، ونشرتها في البداية في مجلة الفصول الأربعة وتشاء الصدف أن يطلع عليها صديقي، ويتأثر بتلك القصة ويعود للكتابة من جديد، اتصلت به وهنأته وشكرني على تلك القصة الرائعة، ثم أصبحت تسمى باسم المجموعة الثالثة لي، والتي صدرت سنة ٢٠١٠م عن مجلس الثقافة العام الرجل والنورس.

تأثرت بالقصة الواقعية عند قصاصي مصر محمد عبد الحليم عبد الله، ويوسف إدريس، ويوسف السباعي، ومحمود بدوي ويوسف الشاروني وغيرهم. وعند قصاصينا عبد الله القويري بشير الهاشمي ويوسف الشريف وخليفة التكبالي وأحمد إبراهيم الفقيه وغيرهم.

لا أحب كتابة القصة في السفر من دولة إلى أخرى، ومن مدينة إلى أخرى، نظرا لأن السفر في رأيي قطعة من العذاب، غير أنني أحب القراءة في السفر خاصة القصة والرواية وغيرها.

أول مدينة أرتادها في سفري، وبعد نزولي في الفندق، أحب أن أتمشى على قدمي كثيرا في شوارعها، أخالط العامة فيها، أجلس في مقاهيها، أتأمل الناس والحياة فيها، أفتش عن مكتباتها الخاصة، أتصفح ما بها من كتب ومجلات أدبية، وقد يعجبني كتاب أدبي أفتقده فأشتريه أو مجلة أدبية من تلك المكتبة أو غيرها.

كنت أقول رأيي في قصص غيري وأنشره في الصحف والمجلات الليبية، حسب قراءاتي وحسب ذائقتي وانطباعي الشخصي، وماذا يجب أن تكون عليه القصة القصيرة؟ والفرق بينها وبين القصة القصيرة جدا والرواية، بل حتى أنني أصدرت كتابا أسميته: قراءات في القصة القصيرة، وكتابا آخر بعنوان ((كتاب القصة القصيرة في مدينة طبرق)).

أنا كقاص إنسان يعمل في كل وقت فهو يسير في الشارع، ويتحدث إلى الناس ويقرأ الصحف والمجلات وينصت إلى من يحكي وقتا آخر بألم يقوله الآخرين وكل ما تقع عيناه عليه ويشد انتباهه، فهو سطر في قصة لم تكتب بعد ولكن سوف تكتب في وقت آخر بألم وصدق والكاتب المتمكن ناقد نفسه وفي سنوات ٨٣- ٨٤ سنوات الكلية العسكرية لم أكتب شيئا.

عندما أستغرق في كتابة القصة أنحني فوق الأوراق تماما، أفكر وأكتب وأضفي على العمل القصصي صفاته الجمالية وكتابة القصة القصيرة هي فنٌ صعب تتطلب الكثر من الجهد والمثابرة ومتابعة متواصلة لتطور القصة القصيرة، فالموهبة وحدها لا تكفي ولا بد أن تكون مصحوبة بقراءات متوسعة وجرأة في المحاولة والتجديد. غير كتابة القصة القصيرة كان اهتمامي أيضًا بجمع الشعر الشعبي للشعراء الشعبيين في مدينتي، فأصدرت شاعر معتقل العقيلة سنة ١٩٨١م وتحقيق ودراسة ديوان هاشم بو الخطابية وديوان الشاعر عبد السلام سليم الغيثي وغيرهما.

انتفاضة ١٧ فبراير

هبت نسمات ثورات الربيع العربي، عندما أضرم طارق محمد البوعزيزي النار في جسده، أمام مقر ولاية سيدي بوزيد، احتجاجا على مصادرة سلطات البلدية لعربة الخضار التي كانت مصدر رزقه، ونكاية في الشرطية التونسية التي صفعته على وجهه أمام مشهد من التوانسة صائحة فيه: هيا امش من هنا.

فانتفضت تونس عن بكرة أبيها، ولم تمض بضعة أيام، حتى خرج رجل مع آخر الليل، إلى شارع الحبيب بورقيبه المهجور بملابسه الرياضية، وصاح في فرح غامر وبصوت عال: بن علي هرب.. بن علي هرب.

وانتقلت الثورة من شارع الحبيب بورقيبه إلى ميدان التحرير بالقاهرة، بينما كان القذافي لم يزل يتشبث بكرسيه، ويستقبل وفود المبايعة من المدن الليبية، الذين كانوا يدخلون الطمأنينة في قلبه على أنه زعيم ومعه الملايين.. ما زلت أتذكر مجلس الثقافة العام ودعوته لنا نحن الكتاب والصحفيين، للتوقيع على مؤلفاتنا الصادرة حديثا عنه، وذلك للحضور والتواجد بمدينة سرت يوم الثلاثاء الموافق ١٥ فبراير ٢٠١١م.

لكن لماذا هذا التوقيت؟ ولماذا مدينة سرت بالذات؟ سرت التي بها اليوم أحدث الفنادق، وأفخم قاعات المؤتمرات، وأضخم مقار الوزارات، وألوف الوحدات السكنية الحديثة.

في صباح اليوم التالي لوصولنا مدينة سرت، تناولنا الإفطار في مطعم الفندق.. وصلتنا الأخبار عن تظاهرات للمواطنين الليبيين وبعض المثقفين، ومواجهات في المساء في بنغازي، إثر اعتقال فتحي تربل محامي ضحايا سجن

بو سليم، في أول مظاهرة سلمية ضد نظام القذافي، وتم التصدي لهم من قبل قوات الشرطة الليبية، التي أطلقت الغاز المسيل للدموع، وفرقت بالعنف جموع المتظاهرين، وسمع العالم أول صوت معارض لنظام القذافي من داخل ليبيا، في اتصال هاتفي للكاتب الليبي إدريس المسماري مع قناة الجزيرة، بأن سيارات أمن وشرطة بزي مدني، ومن وصفهم بمجرمين يواجهون المحتجين بالقنابل المسيلة للدموع والهِراوات والماء الساخن، وانقطعت المكالمة وهو يهتف: ليبيا ليبيا.

وتم اعتقاله واقتحام منزله بمدينة بنغازي.

وكذلك في نفس اليوم مظاهرة في البيضاء، وعدد ثلاثة قتلى من الشباب، وحرق مركز شرطة الساحل بدرنة، أوضاع غير مطمئنة في مدينة البيضاء، فتشت عن صديقي الفنان خليل العريبي، الذي اختفى فجأة في اليوم التالي، سألت عنه أخبرني أحد الرفاق أنه خشي على أبنائه، من الاشتراك في ما يجري في بنغازي، ولهذا قرر العودة إلى هناك في الصباح الباكر، مستقلا إحدى سيارات الأجرة.

علمنا أنّه بعد اختتام مباراة في البيضاء بين فريقي الأخضر والمريخ السوداني، كانت هناك مظاهرة اتجهت إلى مركز المدينة، ثم إلى مقر الأمن الداخلي، للمطالبة بأطلاق سراح المعتقلين، ومن بينهم أحد أئمة المساجد الشيخ صلاح سالم، فقام رجال الأمن بالرماية لتفريقهم، غير أنه أصيب اثنان في مقتل من الشباب المتظاهرين، فعلت الهتافات بإسقاط النظام..

عند الساعة العاشرة صباحا، أقلّتنا الحافلات إلى قاعة المؤتمرات.. وهي ليست بالبعيدة عن مقر إقامتنا، دخلنا القاعة كانت قد جهزت على شكل دائرة ناقص ضلع، ونضدت الكتب الصادرة حديثا على الطاولات في القاعة، بحيث يسمح لدخول الضيوف والتحرك السهل والسلس، جلسنا على

الكراسي وكل كاتب أمامه نسخ من إصداره الجديد، افتتح حفل توقيع الإصدارات بالطريقة التقليدية المعهودة.. كلمة رئيس مجلس الثقافة العام، والتي تحدث فيها بإسهاب عن مدينة سرت من الناحية التاريخية والجغرافية، وكأنه كان يودعها أو كأن هذه الكلمة ستكون هي الأخيرة بالنسبة له فيها، ثم تحدث عن دور الكاتب والأديب في هذه المرحلة الصعبة، ثم كلمة مدير مجلس الثقافة العام، البليغة المنمّقة بالسجع، التي تحدث فيها عن الكتاب وسياسة المجلس في النشر، جاءت بعدها كلمة الكتاب والأدباء ألقاها أحد الكتاب، وبرقية للقائد كالعادة في كل الاجتماعات والاحتفالات، بعد ذلك أعطي الإذن للتوقيع على المؤلفات الحديثة الصادرة عن المجلس، حيث قام المدعوون من المواطنين والمثقفين، بالمرور أمامنا في طابور طويل، ونحن نجلس خلف الطاولات المعروضة عليها مؤلفاتنا الصادرة حديثا، وكل مدعوّ يلتقط نسخة من الكتاب الذي أمامه، ويقف به أمام المؤلف ليكتب له الإهداء على الصفحة الأولى.

بعضنا معروف وصدر له أكثر من كتاب من قبل، والبعض الآخر غير معروف ويصدرله كتاب لأول مرة.. على رأس الصفحة الأولى كنت أدون الإهداء لكل من استلم نسخة من كتابي القصصي حتى نفدت النسخ التي كانت أمامي.

عند الظهيرة عدنا إلى الفندق.. تناولنا وجبة الغداء.. رجعت إلى حجرتي.. فتحت التلفاز الصغير.. تمددت على السرير.. شاهدت على قناة البي بي سي: مظاهرات ومواجهات في بنغازي.

عند الساعة السادسة بعد العصر أقلتنا الحافلات إلى قاعة الاحتفال.. كانت ثمة ندوة عن حرية التعبير، وورقات مقدمة ومداخلات من الكتاب والأدباء، جلست حوالي نصف ساعة في القاعة، غير أنني لم أستطع أن أكمل الندوة، أحسست بمغص وآلام في معدتي، خرجت مهرولا نحو أقرب صيدلية

لشراء دواء أو حبوب مسكنة للألم، في أثناء سيري قابلتني مسيرة لطابور طويل من السيارات فوقها أعلام خضراء تسير ببطء أبواقها مرتفعة، هذا بالإضافة إلى من يهرولون على أقدامهم، وهم يرفعون الراية الخضراء ويهتفون في مظاهرة تأييد للقذافي، ويندّدون بقناة الجزيرة القطرية بصوت عال: ((يا جزيرة يا حقيرة...)) عدت إلى حجرتي في الفندق.. تناولت حبة من الحبوب وجرعة ماء.. تمددت على السرير.. فتحت التلفاز على قناة القنفود الليبية.. شاهدت مسيرة تأييد للقذافي في الساحة الخضراء بمدينة طرابلس، وأخرى بمدينة طبرق امام مثابة اللجنة الثورية، يا إلهي ما الذي يجري في هذه البلاد؟

في المساء وبعد تناول العشاء، تحدثنا نحن الكتاب والأدباء عما يحدث في هذا الوطن، وعبرنا عن قلقنا وانزعاجنا عما يجري في البيضاء ودرنة وبنغازي، قال أحد الكتاب وهو من قاطني مدينة البيضاء: ثمة مظاهرة احتجاج في البيضاء وعدد ثلاثة قتلى من الشباب، واصطدام بكتيبة الأمن.

حال المدن الليبية في المنطقة الشرقية يبعث على القلق والانزعاج، وإن المظاهرات المندّدة بالنظام لم تتوقف. ألغينا الأمسية الشعرية التي كان من المقرر أقامتها، كيف يروق لنا أن نستمع إلى الشعر والشباب يقتلون برصاص الأمن؟ وقررنا العودة إلى مدننا مع صباح يوم الجمعة، وكنا نتابع الأحداث يوم الخميس عبر شاشات القنوات الليبية والعربية خاصة قناة الجزيرة..

الجمعة ١٨ فبراير ٢٠١١م: استيقظنا صباحا.. تناولنا إفطارنا في الفندق، كانت الحافلات في انتظارنا للعودة إلى بنغازي، قررنا العودة مباشرة إلى مدينة طبرق، بعد تأزم الموقف في بنغازي، عبر طريق أجدابيه طبرق، استجاب مجلس الثقافة العام لمطلبنا، جهز لنا سيارة أجرة هونداي بيضاء اللون، وفي أقل من نصف ساعة كنا بداخلها نحن: فوزي الحداد ، عوض الشاعري ، عبدالرحمن سلامة، سليمان زيدان والعبد لله، حيث اتجه بنا

سائقها الفزاني، القاطن مدينة سرت، على الطريق الساحلي نحو الشرق، الرؤية كانت تكاد تنعدم وسط رياح محملة بالرمال الحمراء واللون البرتقالي والأتربة، كان السائق يقلل من سرعة سيارته إلى حد أدنى، كلما اعترضته عاصفة رملية، بينما كنا نحن نتجاذب أطراف الحديث، حول ما يجري في ليبيا وإن كانت وجهات النظر والآراء مختلفة، إلا أن الاختلاف لا يفسد للود قضية.

عند الثالثة بعد الظهر دخلنا مدينة أجدابيه، كانت تضربها الرياح العالية والغبار الكثيف واللون البرتقالي، شاهدنا مدينة خرسانية كأنها مهجورة لا بشر فيها، مقر المؤتمر كان قد أحرق، وكذلك مثابة اللجنة الثورية.. واللجنة الشعبية بها والتوجيه الثوري، نشاهد مجرد بيوت خرسانية، بحثنا في المدينة عن مطعم نتناول فيه وجبة الغداء، كانت معظمها موصدة الأبواب، لم نجد إلا استراحة صغيرة واحدة مفتوحة، ترجلنا من السيارة وسط الرياح المرتفعة والغبار الكثيف دلفنا إليها.. جلسنا على الكراسي ومعنا السائق.. تناولنا وجبة الغداء شربنا الشاي الأخضر.. من ثم أقلع بنا السائق على طريق أجدابيه المتهالكة.. الرياح المحملة بالغبار والأتربة أخذت تهدأ.. الطريق بدت تتضح معالمها أمامنا.. عندما اقتربنا من منطقة العدم.. وصلنا طبرق قبل مغيب الشمس بقليل.. المدينة يخيم عليها السكون والهدوء، أوصلنا السائق كل واحد منا إلى منزله.. كنت أنا المترجل الأخير من السيارة.. نقدته أجرته التي سلمها لي موظف المجلس في مظروف صغير، دعوته للعشاء والمبيت في منزلي.. غير أنه اعتذر خوفا من أن تغلق الطريق البرية بين أجدابيه وسرت في أي لحظة، وقفل راجعا يقود سيارته نحو مدينته سرت.

مع غروب الشمس من نفس اليوم الذي وصلت فيه إلى منزلي، داهم الشباب المثابة وأطاحوا بمجسم الكتاب الأخضر، كما داهموا مقرات الأمن الداخلي والبحث الجنائي والأمن الخارجي والنيابة العامة، وأشعلوا فيها

النيران، وكان سقوط شابين هما: علاء برقاية وعلي بوطبنجة، وبعض الإصابات بين شباب الثورة، ازدادت هذه المظاهرة الحاشدة وردد الجميع: الشعب يريد إسقاط النظام.

توالت الأحداث متصاعدة في طبرق ودرنة والبيضاء والمرج وبنغازي، حيث رفعت أعلام الاستقلال الملونة في بنغازي، وسط سقوط عدد من الشهداء والمصابين بالمئات، انفصلت لبيانا والمدار، في الوقت الذي واصل فيه التلفزيون الليبي الرسمي بث صور مظاهرات مؤيدة للقذافي، ومنددة بقناة الجزيرة.

السنوات تمضي.. الحياة تغيرت في مدينة طبرق التي شجعت على انتقال الكثير من السكان اليها بساطة وسماحة أخلاق أهلها كبرت وتوسعت.. انتشرت بها أحياء جديدة.. غير أن الحطية ظلت كما هي على حالها بأكواخها الضيقة.. كل ما تغير فيها هو اختفاء السكان القدامى وانتقالهم إلى أحياء جديدة.. وظهور سكان جدد بها.. وزحف البناء العشوائي حتى وصلت المباني إلى الشارع الرئيسي، الحطية حاصرتها المباني الحديثة من جميع الاتجاهات، المدينة أزيلت مبانيها القديمة، وحلت محلها عمارات كبيرة جديدة وشاهقة بين يوم وليلة، يملكها أثرياء برزوا فجأة لست أدري هل هم أثرياء الحروب والسلاح؟ أو أثرياء الحشيش والمخدرات؟ الله أعلم.. المدينة اكتظت شوارعها بالسيارات من مختلف الأشكال والألوان والماركات.. الزحام أصبح شديدا بها لا يطاق، تمددت المدينة حتى كروم الخيل وشرقا حتى باب الزيتون وشمالا، حتى التصقت البيوت بشاطئ البحر.. صدرت لي مجموعات قصصية.. وكتب عن قصصي العديد من النقاد الليبيين والعرب.. كما صدرت لي كتب في الأدب الشعبي وقراءات قصصية وتعريف بكتاب القصة القصيرة في مدينتي.

توليت فيما بعد تحرير صحيفة صدى البرلمان، الصادرة عن مجلس النواب، اعتبارا من مايو ٢٠١٥م وكان معي في البداية / محمد سعيد إبراهيم، وعبد الرحمن سلامة وفاطمة محمد سليمان، ومخرجها أنور الشريف، والتوزيع محمد الطاهر بن ضو.

غزاني الشيب.. أصبح شعر رأسي كالثلج الأبيض.. غمرت وجهي الذابل الصغير التجاعيد التي حفرتها السنون.. انفضّ عني الأصدقاء ورفاق الصبا كل إلى حال سبيله.. منهم من رحل عن الحياة، ومنهم من أخذته مشاغل الحياة.. منهم من كان صديقا ولا يزال.. ومنهم من لم يعد.. ومنهم من أصبح خارج دائرة مشاغلي.. ومنهم من خرجت من دائرة اهتماماته ومشاغله في الفترة التي عرفته فيها.. مررت بتجارب كثيرة في حياتي.. تجاوزت العقد السادس من عمري.

الكاتب في سطور

حسين نصيب المالكي، قاص ليبي، من مواليد سنة ١٩٥٣م
حاصل على اجازة التدريس الخاصة لغة عربية ١٩٧٩م
وبكالوريوس علوم عسكرية ١٩٨٥م

صدرت له العديد من المجموعات القصصية وهي:

١- مقبولة سنة ١٩٧٩م
٢- وتجسد الحلم سنة ١٩٨٤م
٣- الرجل والنورس سنة ٢٠١٠م
٤- الطيار البرونزي سنة ٢٠١٨م

كما صدرت له في الدراسة :

١- قراءات في القصة القصيرة سنة ٢٠٠٥م
٢- كتاب القصة القصيرة في طبرق دراسات ونصوص٢٠٠٩م

من المخطوطات التي لدي/

١- ملك الوز مجموعة قصص قصيرة
٢- النوارس مجموعة قصص قصيرة
٣- نهر الحبر تعريف بكتاب ليبيين راحلين وأحياء.